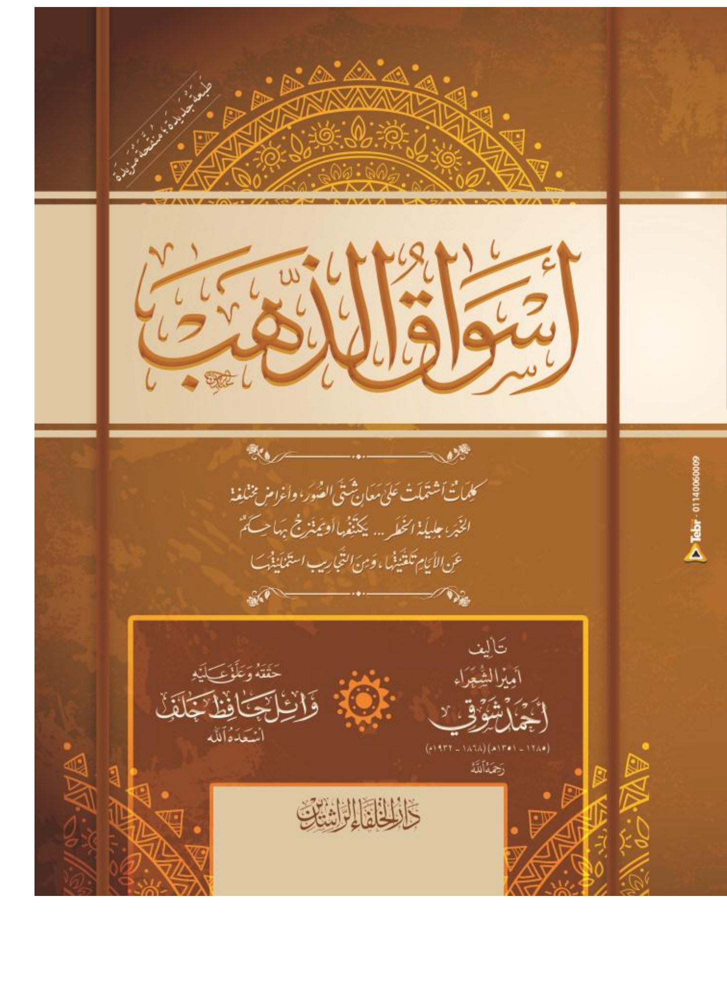
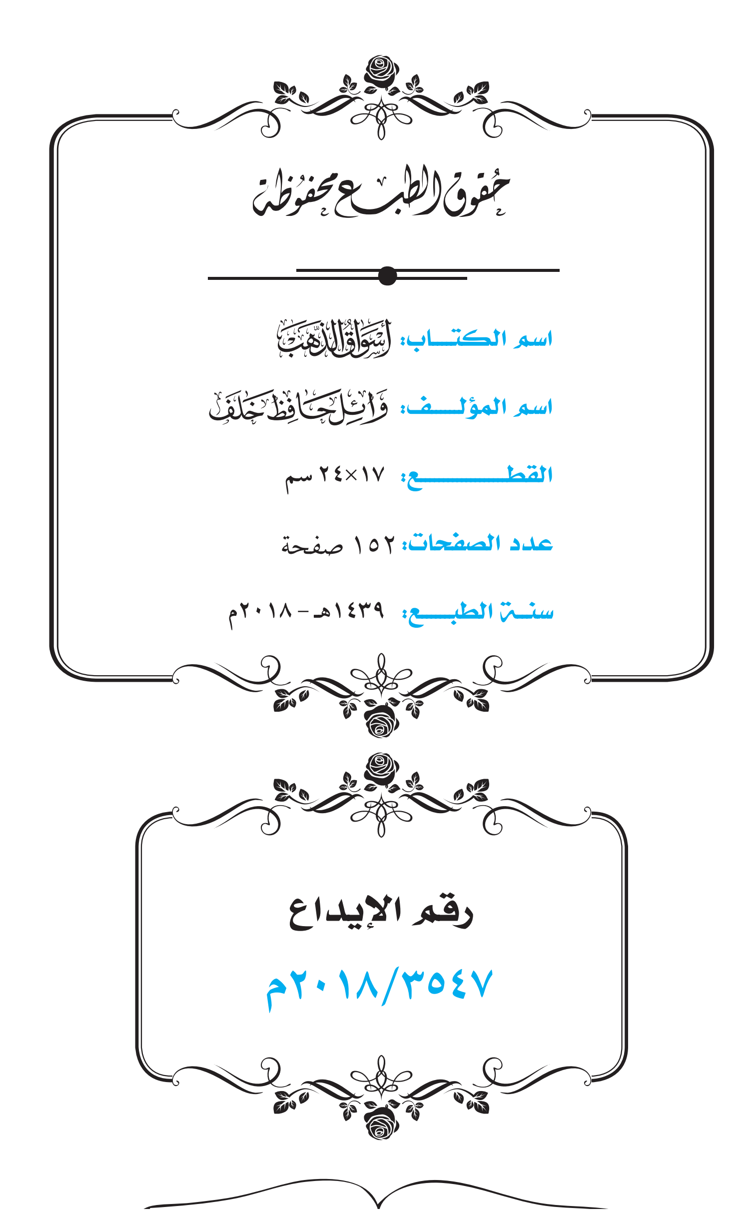

طبعة جديدة، منقحة مزيدة
أسواق الذهب
كلمات اشتملت على معانٍ شتى الصور، وأغراض مختلفة الخبر، جليلة الخطر... يكتنفها أو يمتزج بها حِكَم عن الأيام تلقيتها، ومن التجاريب استمليتها
تأليف
أمير الشعراء
أحمد شوقي
(١٢٨٥ - ١٣٥١هـ) (١٨٦٨ - ١٩٣٢م)
رحمه الله
حققه وعلق عليه
وائل حافظ خلف
أسعده الله
دار الخلفاء الراشدين


أسواق الذهب



اسم الكتاب: أسواق الذهب

اسم المؤلف: وائل حافظ خلف

القطع: ١٧×٢٤ سم

عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة

سنة الطبع: ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع

٢٠١٨/٣٥٤٧م

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر

أمام مسجد الخلفاء الراشدين

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية مصطفى كامل

بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧ - ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦

طبع • نشر • توزيع

طبعة جديدة منقحة مزيدة

أسواق الذهب

تأليف

أمير الشعراء

أحمد شوقي

(١٢٨٥ - ١٣٥١هـ) (١٨٦٨ - ١٩٣٢م)

رحمه الله

حققه وعلق عليه

وائل حافظ خلف

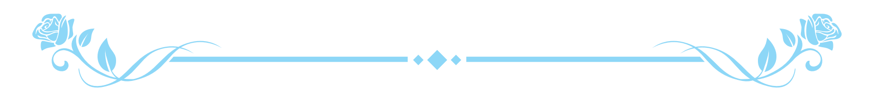
أسعده الله

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية - أبو سليمان - شارع عمر - أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

راسلونا على صفحتنا على الفيس بوك: «دار الخلفاء الراشدين»



كلماتٌ اشتملتْ على معانٍ شتَّى الصُّور، وأغراضٍ مختلفة الخبر، جليلة الخطر... يكتنفُها أو يمتزجُ بها حِكَمٌ عن الأيَّام تلقَّيْتُها، ومن التَّجاريب استمْلَيْتُها

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

عونَك يا لطيفُ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين، لا سِيَّما خاتمهم العربي نبينا محمد الصادق الأمين، وآلِه الأكرمين المكرمين.

أما بعدُ،،،

فهذا الكتاب هو الثالث من سلسلة «**الذَّخيرة الذهبية**»[1]، والغرض الذي نرمي إليه منها هو إحياء الموروث الأدبي الأصيل في دهرٍ داهرٍ صارت الركاكة دثاره والجهالة شعاره، وزمانٍ زامن[2] منعوتٍ بضعف الأدب وأدب الضَّعف، وعصرٍ هو عَسِيٌّ[3] بأن يقال: إنه عصر اجتماع اللصوص على الرفوف! على المعنى المذكور في المثل الإيطالي من قولهم: «**أسوأ اللصوص كتابٌ تافه**».

وهذه الروضة الثالثة التي اكتهل نَبْتُها هي مِن نثر مَن اقتعد ذُروة الشعر وتورَّك رياسته، واعتصب بتاجه وبويع بإمارته، أبي عليٍّ أحمد شوقي.

و«**أسواق الذهب**» لم يطبع ـ فيما قد علمت ـ إلا مرة واحدة، طبعته مطبعة الهلال سنةَ ١٩٣٢م، ولم تتعاوره أيدي الناشرين بعدُ.

---

(١) الكتاب الأول هو «**الأدب الصغير**» لأمير الكُتَّاب عبد الله بن المقفع، والثاني «**كلمة وكُليمة**» لأمير الأدباء أبي السامي مصطفى صادق الرافعي.

(٢) **زمَنٌ زامنٌ**: أي: شديد.

(٣) أي: جدير.

وقد مثِّل الكتابُ فيها مطبوعًا بالشكل في أكثر المواضع المُشْكِلة.

فأتممنا في طبعتنا هذه ما كان نقص، وأصلحنا ما ندَّ[١]، وأخرجنا ما كان في حيز الإشكال إلى حيز التجلي، وعلقنا على موادَّ دعتِ الضرورة إلى التعليق عليها[٢] ... وعلى كل شيء من هذا شاهدٌ واقع في موضعه.

وقد لقينا من تصحيح التجارِب حتى تستقيمَ لنا كبَدًا، فعسى اللهُ أن يكتب لنا بذلك أجرًا، ويضعَ عنا به وزرًا، ويجعلَه لنا عنده ذخرًا، فالخير أردنا، وطلب مرضاة الله هي الغاية التي إليها قصدنا.

وقد قيل في نثر شوقي ما قد قيل، والذي لا يتمارى فيه اثنانِ أنه ليس كشعره الذي بسَقَ، وأكثره لفظ فاخر ومعنى شريف، وأقله دون ذلك[٣]...

بَيْدَ أن بعض من تكلم ونقَد، فبحسدٍ قال وبهوًى حكم؛ فرمت به حزازاتُ القلوب في مهاوٍ من الشطط والغلط.

وشاهدي على هذا مبين يلوح، وبرهاني عَتِيدٌ[٤] ليس يغيب، وهو منك على طرف الثُّمام، حيث التمسته وجدته في كتابات بعض معاصريه ممن استعلى لسانَه ذمُّ شوقي

(١) وهذا يبين بالمقابلة بين النسختين، فإن أنت عارضت عرفت.

(٢) التعليقات التي لنا -سواء أكانت متعلقةً بنص الكتاب أم بالحواشي- وضعناها بين قوسين معقوفين [ ]، مصَدَّرَة بلفظة (قلت)، أو مذيلة بالحرف الأول من اسم كاتب هذا الأسطر (و)... وما عدا ذلك فحواشي الكتاب التليدة.

(٣) والقول الفصل والبيان الشافي في نثر شوقي قد وقع في الكتاب الذي أفردناه لتراجم مؤلفي الكتب التي ننشرها في هذه السلسلة «**الذخيرة الذهبية**».
وانظر الفصل الذي عقده ابن خَلدون في أواخر مقدمة تاريخه، وترجمه بقوله: «فصل في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معًا إلا للأقل»، وكتاب «**شوقي أو صداقة أربعين سنة**» لأمير البيان شكيب أرسلان (ص٥٠) وما بعدها، و«**الأعلام**» للزِّركلي (١/ ١٣٧).

(٤) **العتيد**: الحاضر.

وأنحى عليه بنقد عنيف، وإن مقالاتهم لَتنم عليهم بما في قلوبهم ... وويلي على العَنود الحقود!

ومهما يكن من أمر فقد ودع أمير القريض الدنيا وهو يجر رِياط المجد، وما زال إلى يوم الناس هذا لم يَتَسَنَّهْ[١]، على كثرة ما قد صُوب إليه من حاقد وأمين؛ إذ كان مجده مؤثلًا غيرَ مَنِين[٢].

«فهو الرجل الذي يخيل إليَّ أن مصر اختارته دون أهلها جميعًا لتضع فيه رُوحها المتكلم، فأوجبتْ له ما لم توجب لغيره، وأعانته بما لم يتفق لسواه، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة، لا على قدر رجل في نفْسه؛ وبه وحدَه استطاعت مصر أن تقول للتاريخ: شعري وأدبي!

شوقي: هذا هو الاسم الذي كان في الأدب كالشمس من المشرق: متى طلعَتْ في موضع فقد طلعت في كل موضع، ومتى ذُكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدل على مصرَ كلِّها كأنما قيل: النيل أو الهرم أو القاهرة؛ مترادفات لا في وضع اللغة، ولكن في جلال اللغة.

رجُل انفلت من تاريخ الأدب لمصرَ وحدَها كانفلات المطرة من سحابها المتساير في الجو، فأصبحت مصر به سيدةَ العالم العربي في الشعر.

رجل عاش حتى تمَّ، وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر، ودليل العبقرية على أن فيه السرَّ المتحرك الذي لا يقف ولا يكِلُّ ولا يقطع نظام عمله، كأنَّ فيه حاسةَ نحلة في حديقة، ويكبر شعره كلما كبر الزمن، فلم يتخلف عن دهره، ولم يقع دون أبعد غاياته، وكأنه مع الدهر على سياق واحد، وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطور أطواره في

---

(١) **لم يتسنه:** لم تغيره السِّنون.

(٢) **المنين:** الضعيف.

النمو فلم يجمُد ولم يرتكس، وبقي خيال صاحبه إلى آخر عمره في تدبير السماء كعَرَّاص الغمامة[١]؛ سحابه كثير البرق، ممتلئٌ ممطر، ينصب من ناحية ويمتلئ من ناحية.

والناس يُكتب عليهم الشباب والكهولةُ والهَرَم، ولكن الأديب الحق يكتب عليه شباب وكهولةٌ وشباب؛ إذ كانت في قلبه الغايات الحية الشاعرة، ما تنفك يلد بعضها بعضًا إلى ما لا انقطاع له، فإنها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبه، ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب...

كل شاعر مصريٍّ هو جزء من جزء، ولكن شوقي جزء من كل، والفرق بين الجزأين أن الأخير في قوته وعظمته وتمكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكلُّ؛ ولم يَترك شاعر في مصرَ قديمًا وحديثًا ما ترك شوقي، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه؛ وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده، فساوى الممتازين من شعراء دهره، وارتفع عليهم بأمور كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبِّرة التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطي، أو يَزيد ما تنقص، أو ينقص ما تَزيد.

وقد حاولوا إسقاط شوقي مرارًا، فأراهم غباره[٢] ومضى متقدمًا، ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه، ويرى بهما أن شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحربٍ ونصر، وما هو بمنزلة شاعرٍ وشعره»[٣].

«فليقل القائل ما شاء، فلن يزال أحمد شوقي بلبلَ مصر، وصَنَّاجة العصر»[٤]، وقد

---

(١) **العَرّاص**: السحاب ذو البرق والرعد.

(٢) هذا منتزع من قول أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ ... أراه غباري ثم قال له: الحقِ

وأخذه شوقي فقال في الأديب محمد المُوَيْلِحي (ت:١٩٣٠م):

سيِّدُ المنشئين حثَّ المطايا ... ومضى في غُباره أتباعُه

(٣) هذا من كلام الرافعي، في مقاله عن شوقي.

(٤) هذه الكلمة لأمير البيان، شكيب أرسلان.

كان «تعويضًا عادلًا عن عشرة قرون خلتْ من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعرٌ موهوب يَصِلُ ما انقطع من وحي الشعر، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب، ويحفظ للبيان العربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبَّثة في الكون، وأسرار الجمال المضمرة في الطبيعة، ومعاني الخير الغامضة في الحياة.

وكان فقْدُه فقدًا للوجدان الفني في الشعب الذي علَّمه كيف يتذوق الأدب، ويستسيغ الشعر، وينضح عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابغة الثَّرَّة»[1]، وما كان «لاغيةَ وهْم، فتخفتها صيحةُ حق»[2]!.

وشوقي -غسل الله حوبته- كان نبيلًا برًّا عطوفًا معطاء مخلصًا في حبه لدينه ووطنه[3]... حسبما ذلك مذكور في تواليف من ترجم له، على هفوات منه كانت، ولعل له في بعضها بابًا من العذر وضربًا من التأويل.

---

(١) دبَّج هذه الأديبُ الأريب أحمد حسن الزيات باشا.

(٢) هذه عن العقاد.

(٣) حكى الأستاذ أحمد عبد الوهاب أبو العز -السكرتير الخاص لأمير الشعراء- أنه كان مع شوقي بقهوة الميرمار بشاطئ بيروت في ٢٨ يونية ١٩٣٠، قال: وبعد أن قرأنا بعض الجرائد المصرية، قلت: هل يسمح لي سيدي بكلمة أحملها من وقت كبير وأتردد في عرضها؟

فابتسم وقال: قل بغير تمهيد.

قلت: كنتُ قد سمِعت بمصرَ انتقادًا من بعض الناس على عدم انضمامنا لهيئة سياسية.

قال: أعلم ذلك. ولكن أصرِّح لك أن انتقادهم لا يمس إلا شخصي فقط، واليومَ فقط، وسيُمحى غدًا، أمَّا أنا فلو اتبعت أهواء هذا البعض لمسست أمَّةً وخالفتُ ضميري وواجبي، وما خُلقت لهذا.

لقد حاولت، وعبثًا حاولت، أن أرضي هؤلاء «البعض»، فكلٌّ يريد أن أكون له دون غيره، وضميري يأبى إلا أن أكون له دون غيره، وهو قاسٍ إذا لم يُطَع، وهو أقرب إليَّ منهم.

ثم قال لي: «لقد حاسبت نفسي، وأحمد الله على أن جعلني ذاكرًا ديني ووطني في كل ما كتبت». انتهى.

ومما يحسن ذكره في هذا الموضع ما أثبته سكرتير شوقي أيضًا وهو يعدد أحبَّ الكتب إليه، فقال:

أحب الكتب إلى شوقي قبلَ مرضه: ابن الأثير، و«**العِقد الفريد**»، وجميع الدواوين، و«**الكشكول**»، و«**الأغاني**». =



﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون:١١٨)

والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا ،،،

وكتب

وائل حافظ خلف

البحيرة - جمهورية مصر العربية

= وبعدَ المرض: «**العِقد الفريد**»، و«**الأغاني**»، والجبرتي.

وفي أواخر أيامه: القرآن الكريم، و«**تفسير النسفي**»، وكُتب الغزالي، وكتاب «**إظهار الحق**». انتهى.

ذلك، وكان شوقي قد اشترى «**صحيح البخاري**» قبل وفاته بخمسة أشهر وشرع في القراءة فيه حتى أشرف على ختمه...

وفي الليلة التي تُوفي فيها قرأ عليه الأستاذ أحمد أبو العز قبل أن يفارقه سورةَ الجمعة وما وليها، وتلاها بتفسير النَّسَفي. وسأله شوقي -فيما روى ابنه حسين- عن التوبة والغفران، وما يحفظ فيهما من آي الذكر الحكيم؟ ويكأنَّه أحس بدنوِّ أجله. الله يرحمه.



لأمير الشعراء

أحمد شوقي

(١٢٨٥ - ١٣٥١هـ / ١٨٦٨- ١٩٣٢م)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمدُ لله الذي عَلَّم بالقلم، وألهمَ نوابغ الكَلِم، وجعل الأمثالَ والحِكَم، أحسنَ أدبِ الأُمَم، وصلَّى اللهُ وسلَّم على محمدٍ دِيمَة البيان المنسَجِمة[١]، وعلى موسى الكليم وعيسى الكلمة[٢].

وبعدُ...

فهذه فُصولٌ من النثر ما زعَمتُ أنها غُرَرُ زياد[٣]، أو فِقَرُ الفصيح من إياد[٤]، أو سجعُ المُطَوَّقةِ على فرعِ غُصنِها الميَّاد[٥]. ولا توهَّمتُ حين أنشأتُها أني صنعتُ (أطواق الذهب) للزَّمَخشَرِيِّ، أو طبعتُ (أطباقَ الذهب) للأصفَهانيِّ[٦]، وإنْ سمَّيْتُ هذا الكتابَ بما يُشبهُ اسمَيْهما، ووسَمْتُه[٧] بما يقربُ في الحُسْن من وَسْمَيْهما.

---

(١) **الدِّيمة**: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق. **والمنسجم**: السائل المنصب.

(٢) **الكليم**: لقب موسى؛ لأنه كلَّم الله. **والكلمة**: لقب عيسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

[**قلت**: لهذا بسط سيقع إن شاء الله في موضعه من الفصل المعقود لقناة السويس].

(٣) زياد بن أبيه من أشهر خطباء الدولة الأُموية.

(٤) هو قُسُّ بن ساعدة الإيادي، ويكاد يكون أخطبَ خطباء الجاهلية. **والفِقَر**: جمع فِقرة، وهي من النثر بمنزلة البيت من الشعر.

(٥) **الميَّاد**: الكثير الميد، **والميد**: الميل والتحرك.

(٦) **أطواق الذهب، وأطباق الذهب**: كتابان من كتب المقامات في الوعظ والإرشاد، وكلاهما في عُلْيا مراتبِ البلاغة. الأول لجار الله الزمخشري، والثاني للعلامة الأصفهاني -عليهما رحمة الله-.

[**قلت** (وائل): الأصفهاني هذا ليس هو أبا الفرج صاحبَ «الأغاني» كما قد يتبادر إلى الذهن من هذا الإطلاق، بل هو شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله، المعروف بشقروه الأصفهاني. وقد كسر كتابه «أطباق الذهب» على مائة مقالة ونَيِّف، سلك فيها مسلك الزمخشري في «أطواق الذهب». وكِلا اثنيهما مطبوع].

(٧) **وسَم الشيءَ**: جعل فيه أثرًا، **والوسم**: الأثر والعلامة.

وإنما هي كلماتٌ اشتملَتْ على معانٍ شتَّى الصُّوَر، وأغراضٍ مختلفةِ الخَبَر، جليلةِ الخَطَر؛ منها ما طال عليه القِدَم، وشاب على تناوُلِه القَلَم، وألَمَّ به الغُفْلُ[١] من الكُتَّابِ والعَلَم[٢]؛ ومنها ما كثُرَ على الألسنة في هذه الأيام، وأصبَح يَعرِضُ في طُرُق الأقلام، وتجري به الألفاظُ في أعِنَّةِ[٣] الكلام؛ مِن مثْل: الحريةِ، والوطن، والأُمَّة، والدستور، والإنسانيَّة، وكثيرٍ غير ذلك من شئون المُجتمَعِ وأحوالِه، وصفاتِ الإنسانِ وأفعالِه، أو ما له عَلاقةٌ بأشياءِ الزمن ورجالِه؛ يَكتَنِفُ ذلك أو يمتزجُ به حِكَمٌ عن الأيام تلقَّيْتُها، ومن التَّجاريب اسْتَمْلَيْتُها، وفي قوالبِ العربيَّةِ وَعَيْتُها[٤]، وعلى أساليبها حَبَّرْتُها وشَيْتُها[٥]. وبعض هذه الخواطر قد نَبَعَ من القلب وهو عند اسْتِجْمَام عفوِه[٦]، وطَلَع في الذهن وهو عند تمام صَحْوِه وصَفْوِه؛ وغَيْرُه -ولعلَّه الأكثرُ- قد قيل والأكدارُ سارية، والأقدار بالمكاره جارية، والدار نائية، وحكومة السيف عابثة عاتية. فأنا أستقيل القارئَ فيه السَّقَطات، وأستوهِبُه[٧] التجاوُزَ عن الفَرَطَات[٨].

اللهمَّ غيرَ وجْهِكَ ما ابتغَيْت، وسِوى النَّفعِ لخَلْقِكَ ما نويت، وعليكَ رجائي ألقيت، وإليك بِذُلِّي وضَعْفي انتهيت.



(١) **الغفل**: المجهول.
(٢) **العلم**: المقدَّم.
(٣) **أعنة**: جمع عِنان.
(٤) **وعى**: حفِظ.
(٥) **حبَّر الكلامَ ووشاه**: حسَّنه وزيَّنه.
(٦) **استجمَّ الماءُ استجمامًا**: كَثُرَ واجتمع. **والعَفْوُ من الماء**: ما فَضَلَ عن الشَّارِبة وأُخذ من غير كُلْفة ولا مزاحمة.
(٧) **استوهبه**: سأله الهبة.
(٨) **الفرَطات**: جمع فرْطة، وهي ما فرط من الشخص من تقصير.

الحقيقةُ الواحِدَة[١]

يا متُابِـعَ المَلَاحدة، مُشايِـعَ العُصْبةِ الجاحدة، منكرَ الحقيقةِ الواحدة: ما للْأَعمى والمِرْآة، وما لِلْمُقْعَدِ[٢] والمِرْقاة[٣]، وما لكَ والبحثَ عنِ الله؟!

قُمْ إلى السَّماءِ تَقَصَّ[٤] النَّظَر، وقُصَّ الأَثَر[٥]، واجمَعِ الخُبْرَ والخَبر[٦]. كيف ترى ائتلافَ الفَلَك، واختلافَ النُّور والحَلَك[٧]، وهذا الهواءَ المشترَك، وكيف ترى الطيرَ تَحسَبُه تُرِك، وهو في شَرَك[٨]، استَهدَفَ فما نجا حتى هَلَك[٩]. تعالى اللهُ، دَلَّ المُلْكُ على المَلِك.

وقِفْ بالأرضِ سَلْهَا مَن زَمَّ[١٠] السحابَ وأجْراها، ورَحَّلَ[١١] الرياحَ وعَرَّاها[١٢]،

(١) **الحقيقة الواحدة**: وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولعل المؤلفَ يشير إلى قول لَبِيدٍ: «ألا كلُّ شَيْءٍ ما خلا اللهَ باطلُ».

(٢) **المقعد**: الذي يشكو القُعادَ، وهو داء يقعد المصاب به عن المشي.

(٣) **المرقاة**: السُّلَّم.

(٤) أرسِلْه إلى أقصاه.

(٥) **قَصَّ الأثر**: اقتفاه.

(٦) **الخُبْر**: الاختبار بالمشاهدة. **والخَبَر**: الرواية بالسماع.

(٧) **الحَلَك**: الظلام.

(٨) تظنه حرًّا طليقًا، وهو أينما حلَّ في متناول قبضة الصياد.

(٩) **استهدف**: أصبح غرض السهام. والمراد: أنه لا يكاد ينجو من سهم مصَوَّب إليه حتى يُدركَه الموتُ من سهم آخرَ.

(١٠) **زمَّ الناقةَ**: خَطَمَها.

(١١) **رحَّل البعيرَ**: شد على ظهره الرحلَ تمهيدًا للمسير.

(١٢) **عراها**: جرَّدها مما فيها من أمطار.



ومَنْ أقعد الجبالَ وأنهضَ ذُراهـا[١]، ومَنِ الذي يَحُلُّ حُباها[٢]، فتخِرُّ له في غدٍ جِباها[٣]؟

أليس الذي بدأها غَبَرَات[٤]، ثم جمعها صخَرات، ثم فرَّقها مُشمَخِرَّات[٥]؟

ثم سَلِ النملَ مَنْ أدقَّها خَلْقًا[٦]، ومَلأها خُلُقًا[٧]، وسَلَكَها طُرُقًا[٨]، تبتغي رزقًا؟

وسلِ النحلَ مَنْ أَلْبَسَها الحِبر[٩]، وقَلَّدها[١٠] الإبَر، وأطْعمَها صَفْوَ الزَّهَر، وسخَّرَها طاهيةً[١١] للبشر؟

لقد نَبَذْتَ الذَّلولَ[١٢] المُسْعِفَة[١٣]، وأخذتَ في مَعامي[١٤] الفَلْسَفَة، على عَشْوَاءَ

(١) **أقعد الجبال**: ثبَّت قواعدَها في الأرض. **وأنهض ذُراها، أي**: رفع عاليَها شامخة في السماء.

(٢) **يَحُل حباها: أي**: يفكها من حبوتها، وينهضها من ربضتها.

(٣) [**قلتُ**: لم أقف في توجيه هذه الكلمة على رأي متماسك يثلج الصدر، وقد استطلعت رأي بعض مَن أعرف من الألبَّاء الأكابر، بعد أن استشرت ما في مكتبتي من معاجم؛ فتشعبت الآراء ... ولعل أولى الأقوال بالقَبول أقربُها؛ أن تكون حالًا من الفاعل في (تخر)].

(٤) **غبرات**: جمع غَبْرة «بتسكين الباء»، وهي ذرة الغبار.

(٥) **فرَّقها في الأرض. ومشمخرات أي**: باذخات.

(٦) **أدقَّها**: صيَّرها دقيقة.

(٧) **خلُق النمل**: تلك النظم المتسقة التي يوحي لها بها الإلهام.

(٨) **سلكها طرقًا**: جعل لها طرقًا تسلكها.

(٩) **الحِبَر**: جمع حِبَرَة، كعنبة، وهي بُرُود يمنية ملوَّنة، وقد شبَّه بها المؤلف تلك الألوانَ الزاهية التي يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس.

(١٠) **قلَّده السيفَ**: وضع حِمالتَه في عنقه.

(١١) **طاهية**: طابخة تطبخ للناس في بطونها عسلًا.

(١٢) **الذَّلول من الدواب**: ما كانت سهلة القياد، **والمراد** بها هنا: الشريعة السمحة.

(١٣) **المسعفة**: التي تسعف أبناءَها باليقين والإيمان.

(١٤) **المعامي**: المجاهل.

من الضَّلالِ مُعْسِفَةَ(١).

أوْ لا فخَبِّرْني: الطَّبيعةُ مَن طبَعَها(٢)، والنُّظُمُ(٣) المتقادِمةُ مَنْ وضَعَها، والحياةُ الصانِعةُ مَن صَنَعَها، والحركةُ الدافعةُ مَنِ الذي دفَعَها؟ عرَفْنا كما عرفتَ المادَّة، ولَكِنْ هُدِينا وضَلَلْتَ الجادَّة(٤). وقُلْنا مِثلَكَ بالهَيُولَى(٥)، ولكنْ لَم نَجْحَدِ اليدَ الطُّولى(٦)، ولا أَنكرْنا الحقيقةَ الأُولى(٧). أَتَيْنا العناصرَ مِن عُنْصُرِها(٨)، ورَدَدْنا الجواهرَ إلى جوهرِها(٩).

اطَّرَحْنا(١٠) فاسترَحْنا، وسلَّمْنا فسَلِمْنا، آمَنَّا فأَمِنَّا.

وما الفَرْقُ بيْننا وبيْنَكَ إلَّا أنَّكَ قد عَجَزْتَ فقلتَ: سِرٌّ مِنَ الأسرار، وعَجَزْنا نحن فقُلْنا: اللهُ وراءَ كلِّ سِتار.

---

(١) **العشواء**: العمياء. وأعسف: خبط في السير.

(٢) طبعها: خَلَقها. وهنا يبدأ المؤلف في تعجيز الملحدين.

(٣) **النظم المتقادمة والحياة الصانعة والقوة الدافعة**: كل هذه قُوًى يظن الملحدون كفرًا أنها هي الأصل في الكائنات.

(٤) **الجادة**: الطريق القويم.

(٥) **الهيولى**: مادة. وشَبَّهَ الأوئلُ طينةَ العالَمِ بها.

(٦) اليد الطُّولي: يد الله التي أبدعت هذه الطبيعةَ، ونفختْ فيها الرُّوح.

(٧) **الحقيقة الأولى**: وجود الله.

[**قلت**: هذا يقال حال الجدال وسوق الحِجَاج على أهل الإلحاد، فإذا تقرر فليشرع في تقرير الربوبية (وهي ما يسميه علماء الأصول توحيد المعرفة والإثبات)، فإذا تقرر فليحتج به على أنه لا إله إلا الله، والمعنى: لا معبود بحق إلا الله، وهي حقيقة الحقائق...

وليعلم أن مجرد الإيمان بوجود الله لا يغني عن صاحبه شيئًا، وكذلك مجرد الإيمان بربوبيته سبحانه بعد الإيمان بوجوده ليس بنافع، حتى يجمع إليهما توحيد الإلهية (= توحيد الطلب والقصد)، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة. فتنبه. اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم].

(٨) **العناصر**: جمع عنصر، وهو أولًا بمعنى المادة البسيطة، وثانيًا بمعنى الأصل. **وأتيناها**، أي: بحثنا فيها.

(٩) **الجواهر**: جمع جوهر، وهو الحجر يُستخرج منه شيْءٌ يُنتفع به، والجوهر ثانيًا بمعنى الأصل والجِبِلَّة.

(١٠) **اطَّرَحَ الحِمْلَ**: ألقاه عن عاتقه. والمقصود من هذه الجملة وما بعدها: آمَنَّا بالله وترَكْنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذي لا نهاية له، والبحثِ الضالِّ الذي لا يُؤْمَن فيه العِثَارُ...

الوَطَـــن

«حُبُّ الوطنِ والتفاني في سبيلِه سَجِيَّةُ كلِّ نفْسٍ كبيرة. وقد أَوحتْ هذه العاطفةُ بأعظم ما حفِظَه لنا التاريخُ من المآثر وجليل الأعمال، وأَبلَغِ ما جادتْ به القرائحُ من روائع الآيات والأقوال(١)».

ولقد طالما أشاد المؤلِّف في شِعره بذكر الوطن، وتغنَّى بوصف آثاره الخالدة بقصائدَ تَضمَنُ لها بلاغتُها من الخلود ما لتلك الآثار. ولطالما استخلص مِن بيانِه سِحرًا أحيا مفاخر الآباء والأجداد، فبعثها مِن لُحود الأجيال الغابرةِ تَتمثَّلُ عظَمَتُها وروعتها للأبناء والأحفاد.

لم يقف المؤلِّفُ مِن آثار وطنه وقوفَ العرب على الطُّلُول يَبكيها ويَرْثيها، بل مسحها بدموع قلبه ليُحييَها ويستوحيها، فجعل مِن تَغنِّيه بما كان من المفاخر للوطن في الغابر من الزمن حُداءً منه للخَلَف لاحتذاء آثار السلف.

ولو جَمَع جامعٌ ما قال المؤلف في مفاخر الوطن من يوم قال منذ ثلاثين سنةً:

وَبَـنَـيْـنَـا فَـلَـمْ نُخَـلِّ لِـبَـانٍ   وَعَـلَـوْنَـا فَـلَـمْ يَجُـزْنَـا عَـلاءُ

لاجتَمَع لديه خيرُ سِفْرٍ شاملٍ للدروس الوطنية.

---

(١) [راجع الرسالة السابعةَ عشرةَ من مجموعة رسائل الجاحظ، الموسومة بـ«رسالة في الحنين إلى الأوطان» (٢/ ٣٨٣ وما بعدها)، وكتاب «الحيوان» له أيضًا (٣/ ٢٢٧-٢٢٨) كلاهما طبعة الخانجي، و«ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (٢/ ٩٨٢ وما بعدها) ط.الهيئة، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٩٣-٣٩٤)]. (و)

وهذه القطعة من الشعر المنثورِ أُنشودة عذْبة للوطن، جمع فيها كاتبُها جميعَ الأنغام التي يثيرها ضربُ الوطنية الصادقة على أوتار القلوب كما سنبيِّنه فيما نعلِّقه عليها من الحواشي».

الوطنُ مَوضعُ الميلاد، ومَجمعُ أوطارِ الفؤاد، ومضجعُ الآباء والأجْداد[(١)]. الدنيا الصُّغْرى، وعتبةُ الدار الأخرى، المَوروثُ الوارث، الزائلُ عن حارثٍ إلى حارث. مؤسِّسٌ لبانٍ، وغارسٌ لجانٍ، وحَيٌّ من فانٍ، دَوَالَيْكَ حتى يُكْسَفَ القمَران، وتَسْكُنَ هذي الأرضُ مِن دوران.

أوَّلُ هواءٍ حرَّك المِرْوَحتين، وأول تراب مسَّ الرَّاحتين[(٢)]، وشعاعِ شمسٍ اغتَرَق العين[(٣)]. مَجرَى الصِّبا ومَلعبُه، وعُرسُ الشباب وموكِبُه، ومرادُ الرِّزقِ ومَطلَبُه، وسماءُ

---

(١) جاء في مقدمة الجزء الأول من «الشوقيات» = [**قلت**: يعني: مقدمةَ المؤلف للجزء الأول من ديوانه «الشوقيات» في طبعتيه الأولى والثانية، سنة ١٩٠٠، ١٩١١. وقد حُذفت هذي المقدمةُ من الطبعات التالية، ليحل محلها مقدمة من قلم الدكتور محمد حسين بك هيكل] = : «إنها **مصر** بلادي، وهي منشأي ومهادي، ومقبرة أجدادي؛ وُلِد لي بها أبوان، ولي في ثَراها أبٌ وجدَّان، وببعض هذا تُحبَّب إلى الرجال الأوطان». **والوطر**: الحاجة والغرض. **والحارث**: الزارع. **ودواليك**: أي: مداولة بعد مداولة.

تناول الكاتب في هاتين الفقرتين وصفَ الوطن عن طريق التحديد، وهو كما حدَّده ابن سينا في «رسائله»: «الحد الجامع المانع»، أي: الوصف المحيط بمعنى المعرَّف، المميِّز له عن غيره.

فوصَف الوطن بالمؤسس للباني، والغارس للجاني، وبمجرى الصبا وملعبه، وعرس الشباب وموكبه ... إلى غير ذلك من الأوصاف؛ كما وصفه بموضع الميلاد، ومضجع الآباء والأجداد، وأول هواء حرَّك المروحتين، وأول تراب مس الراحتين، إلى غير ذلك من الأوصاف المانعة المميزة له عن سواه. وهكذا جاء بخواصِّ المعرَّف وأوصافِه وأعراضه التي مِن شأنها أن تبيِّن حقيقتَه.

(٢) **المروحتان**: الرئتان. **والراحتان**: الكفان.

(٣) **اغتَرَق العين، أي**: شغلها عن النظر إلى غيره. [قلت: جاء في «تهذيب اللغة» لأبي منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ): يُقال: فلانةٌ تغترقُ نظر الناس؛ أي: تشغلهم بالنظر إليها عن النظر إلى غيرها؛ لحسنها].



النُّبوغِ وكوكبُه، وطريقُ المجد ومركَبُه. أبو الآباءِ مُدَّتْ له الحياةُ فخَلَد، وقضى اللهُ ألَّا يَبقى له ولد. فإنْ فاتك منه فائتٌ فاذهب كما ذهب أبو العلاءِ(١) عن ذِكْرٍ لا يفوت، وحديثٍ لا يموت.

مدرسة الحقِّ والواجب، يَقضي العُمُرَ فيها الطالب، ويقضي وشيء منهما عنه غائب؛ حقُّ اللهِ وما أَقْدَسَه وأَقْدَمَه، وحقُّ الوالدَينِ وما أَعْظَمَه، وحقُّ النَّفْسِ وما أَلْزَمَه، إلى أخٍ تُنصفُه، أو جارٍ تُسعفُه، أو رفيقٍ في رِجال الحياة تتألَّفُه، أو فضْلٍ للرجال تُزَيِّنُه، ولا تُزَيِّفُه(٢)، فما فوقَ ذلك مِن مصالحِ الوطن المقدَّمة، وأعباءِ أماناتهِ المعظَّمة؛ صيانةُ بِنائِه، والضَّنانةُ بأشيائِه(٣)، والنَّصيحةُ لأَبنائه، والموتُ دونَ لوائِه. قُيودٌ في الحياة بلا عَدَد، يَكسِرُها الموتُ وهو قَيْدُ الأبَد(٤).

---

(١) [قلتُ: أراه يعني المَعَرِّيَّ، وقد كان بشعره معجبًا، على أنه خالفه في أشياءَ مما ذهب إليه، من ذلك أنه لم يرتضِ قوله -الذي يُروى أنه أوصى أن يُكتب على قبره-:

هـذا جَـنـاهُ أبـي عَـلَـيَّ ... ومـا جَـنَـيْـتُ عـلـى أحـد

فقال شوقي:

بَـيْـني وبَـيْـن أبـي الـعـلاءِ قـضـيَّـةٌ ... في الـبِـرِّ أَسْـتَرْعـي لـهـا الـحـكـمـاءَ

هـو قـد رأى نُـعْـمَـى أبـيـه جِـنـايـةً ... وأرى الجِـنـايـةَ مِـن أبـي نَـعْـمـاءَ

وفي هذا يقول الدرزي أحمد تقي الدين:

يـا نـاظـرًا سبْـعـتي حَـوْلـي وقـد بَـسَـمَـتْ ... ثُـغـورُ آدابِـهِـم كـالـسَّـبـعـة الـشُّـهُـب

إنِّـي أؤَيِّـدُ شَـوْقـي في تَـعـرُّضِـهِ ... شـيـخَ الـمَـعَـرَّةِ في: هـذا جَـنـاه أبـي]

(٢) **زَيَّفَ الرجلَ**: صغَّر به وحقَّره.

(٣) **الضنانة بالشيء** كالضن به: البخل والحرص عليه.

(٤) تناول الكاتب في هذه الفقرة حقوقَ الوطن على أبنائه أو واجبات الوطنيين نحو وطنهم، ففصَّلها أجمل تفصيل دون أن يفوته وصْفُ كلِّ حق بوصفه الملازم من حق الله؛ وحق الوالدين، وحق النفْس، إلى حق الإخوان وسائرِ أبناء الوطن. مجموعة حقوق يتألف منها حق الوطن على كل إنسان ولو أدى القيام بهذا الحق إلى التضحية بالنفس دفاعًا عن الوطن. ثم قال: إن هذه الواجباتِ ينبغي للإنسان القيام بها في جميع أدوار الحياة، فلا ينعتق منها إلا بالممات.

رأسُ مالِ الأُممِ فيهِ من كلِّ ثمرٍ كريم، وأثرٍ ضئيلٍ أو عظيم، ومُدَّخرٍ حديثٍ أو قديم. ينمو على الدِّرهم كما ينمو على الدِّينار، ويَرْبو على الرَّذاذِ كما يَرْبو على الوابلِ المِدرار، بحرٌ يَتقبَّلُ مِنَ السُّحُب ويتقبَّلُ من الأنهار.

فيا خادمَ الوطنِ ماذا أعدَدْتَ للبناءِ مِن حَجَر، أو زِدْتَ في الغَنَّاءِ من شَجَر؟ عليك أن تَبلُغَ الجُهد، وليس عليك أن تَبنيَ السَّد. فإنما الوطن كالبُنيانِ فقيرٌ إلى الرأسِ العاقِل، والساعِدِ العامل، وإلى العَتَبِ الوضيعة، والسُّقوفِ الرَّفيعة، وكالرَّوضِ مُحتاجٌ إلى رخيصِ الشجر وثمينه، ونَجيبِ النباتِ وهَجِينِه؛ إذ كان ائتلافُه في اختلافِ رياحينه، فكلُّ ما كان منها لطيفًا مَوقِعُه، غيرَ نابٍ به موضعُه، فهو من نوابغِ الزَّهرِ قريب، وإن لم يكنْ في البديعِ ولا الغريب(١).

حظيرةُ الأَعراضِ والعُروضِ، ومحرابُ السُّنَنِ والفُروضِ. سيِّدُ الأديم، صفحاته التاريخ الكريم، وبَوْغاؤه عِظَمُ الأُبُوَّةِ وإنه لَعظيم، وعلى جوانبه الدولةُ وهي حَسَبُ الأُمَمِ الصَّميم. وثَمَّ كرائمُ الأموالِ والأنفُسِ وهي غَوَال، وثَمَّ ثمراتُ الرِّجال، وضنائِنُهمُ اللَّاتي خَلْف الحِجَال(٢).

فيا عجبًا كيفَ يَجحَدُ الأوطانَ الجاحد، أو يزعمُ أن الأرضَ كلَّها وطنٌ واحد! قضيةٌ تُضحِكُ النملَ في قُراها، والنحلَ في خلاياها، وتَسْتَبهِمُ على الطَّيرِ في أَوْكَارِها،

(١) **الرذاذ**: المطر الضعيف والمال القليل. **والوابل المدرار**: المطر الشديد الضخم القطر. **والنجيب**: الكريم الحسيب من الإنسان والحيوان. **والهجين**: مَن أبوه خيرٌ من أُمه. **وناب، أي**: نافر.
يريد أن كل إنسان مهما ارتفع شأنه أو اتَّضَعَ مكانُه قادرٌ على خدمة الوطن، بل هو مطالَبٌ بتلك الخدمة، فعَمَدَ موفقًا إلى التشبيه والاستعارة، فقال: إن البناء محتاج إلى العَتَب الوضيعة والسقوفِ العالية، وإنَّ الروض لا يتم بهاؤه وجماله إلا بمختلف الأزاهير والرياحين.
وقد انتقل من الإخبار إلى الخطاب، فقال: «فيا خادمَ الوطن، ماذا أعددتَ ...»، وهو التِفاتٌ بليغ.

(٢) **الحظيرة في الأصل**: مأوى الإبل والغنم. **والأعراض**: جمع عِرض وهو الشرف. **والعروض**: جمع عَرَض، وهو المتاع. **البَوغاء**: ما يثور من الغبار ودقاق التراب. **والضنائن**: جمع ضَنِينة، وهو ما يُضَنُّ به. **والحِجال**: جمع حَجَلَة، وهي ستر العروس داخلَ بيتها.

وعلى السِّباعِ في أَجْحارِها، ويُنبئُك عنها السَّمكُ إذِ اتَّخذَ من البحرِ وطنًا شائعًا؛ فوُلِدَ مهدورًا وعاشَ ضائعًا؛ صِغارُه طرائد، وكِبارُه موائد؛ ويَتصيَّدُ بعضُه بعضًا إنْ أبطأ الصَّائِد(١).

والوطن شَركةٌ بيْن الأوَّلِ والآخِر، وبين الحاضِر والغابِر. لا يَرِثُّ لها عَقْد، وإنْ تطاول العهد، مؤسَّسةٌ بالمهْدِ حينًا وباللَّحد؛ يُدخِلُك فيها الميلاد، ولا يُخْرِجُك منها النفاد، فقد تُضرِمُ النارَ وأنتَ هامدٌ كالرَّماد، وقد تَحيا بك الدِّيارُ وأنت بِوَادٍ والحياةُ بوادٍ(٢).

والوطنُ مستودَعُ المفاخر، وصُوَانُ المآثر، وخِزانةُ الأَعْلاقِ والذخائِر. لكل مُتقِنٍ منها مَوقِعُه، ولا يَنْبُو بصالحٍ فيها مَوضِعُه، الهرَمانِ لدَيْها مُعَظَّمان، (وشيخُ البلد) شيخ الصناعةِ على الزمان. وعِندَها سيفُ (عليٍّ) ومغارِسُه، وقناةُ (إسماعيلَ) ومَدارِسُه. وفيها القصائدُ البارودِيَّة، وليس فيها الخطبُ النَّديميَّة؛ تلك لِقُرْبها من كلام الحكمة، وهذي لبُعدِها عن الإتقان والحِشمة. فيا لكِ خِزانةً تُميِّزُ الصِّحاح من الزُّيوف، وتَعرفُ الضَّيْفَنَ مِنَ الضيوف، وتَحجُبُ العِصِيَّ وتأذَنُ للسُّيوف(٣).

---

(١) يُفنِّد الكاتب مزاعمَ أصحاب مذهب «اللاوطنية» القائلين بأن الأرض جميعَها وطنٌ للناس جميعًا، وضرَبَ السمكَ في البحر مثلًا لضرر الشيوعية في الوطن. وقُرى النمل وخلايا النحل وأوكار الطير وأَجْحَار السباع: أماكنها ومنازلها.

(٢) كَنَى عن ارتباط حاضر الوطن بماضيه بشركة معقودة بين السلف والخلف. يَرِثُّ: يَبلَى. ويريد بإضرامك النارَ وأنت هامد كالرماد وبإحيائك الديارَ بعد خروجك من الحياة: أن الأموات كثيرًا ما يكونون بمَثَل حياتهم العالي أكبرَ حاملٍ للأحياء على حميد الفِعال. وبهذا المعنى قال أحد الفلاسفة الفرنجة: «يتألف الوطن من الأموات أكثر مما يتألف من الأحياء».

(٣) **صُوان الشيء**: وعاؤه. **وأعلاق الأشياء**: نفاسها. **والزيوف**: الدراهم المغشوشة. **والضَّيفَن**: مَن يجيء مع الضيف متطفلًا.

والمراد: أن الوطن يحفظ مآثر الرجال، وقد ضرب ما تراه في المتن من الأمثال عما يحفظه الوطن المصري للمصريين. ثم انتقل في الفِقرة التالية من التخصيص إلى التعميم. (**شيخ البلد**) آية من آيات فن النحت عند قدماء المصريين، يجده الناظر في دار الآثار. و(**قناة إسماعيل**): قناة السويس. (**البارودية**): نسبة إلى محمود سامي باشا البارودي، (**والنديمية**): نسبة إلى عبد الله نديم. =

صحيفةُ الأخبار، وكِتابُ الأبرار، وسِجِلُّ الهِمَم الكبار؛ أسماء المحسنين فيه مَرْفوعة، وأفعالُهم مُثُلٌ للخَلَفِ مَنصوبة، وحروفٌ بماء الذهبِ مَكتوبة. فإذا أتَتِ السِّنُون، ودارتْ على الرِّجال المَنُون، ولحِقَتْ بالمُشايع الشِّيَع، وذهب المتبوعُ والتَّبَع، ونامَتِ الحَرابِيُّ[1] عن الشموس، وحِيلَ بين النارِ وبينَ المَجوس - انفتح كتابُ الوطن من نفْسِه، وإذا الحسناتُ ثَمَّ على الصَّدَف مُحْصاة، فلا الحصاةُ دُرَّةٌ ولا الدُّرَّةُ حصاة، وإذا الرجالُ يعظَّمون على الأفعال، وإذا الوقائعُ قد نُحِتَ منها الأبطال؛ على قَدْرِ العملِ يأتي الجزاء، وبِقَدْرِ جَمالِ الأثَرِ يكونُ حُسْنُ الثناء.

وليس أحَدٌ أَوْلى بالوطن مِن أحَد، فما (باستورُ) والشِّفاءُ في مَصْلِه[2]، ولا (كمالُ) والحياةُ في نَصْلِه[3]، أَوْلى بأصل الوطن وفصْلِه، مِنَ الأَجير المحْسِنِ إلى عِيالِه، الكاسِبِ على أطفالِه، الفادي الوطنَ بأشبالِه، وهم رأسُ مالِه. فلا تَتَحمَّدْ على الأوطان بآثار كرَم، وإنْ حَمَلْتَ عليها الهَرم، أونَقَلْتَ إليها إِرَم؛ فإنك لم تَزِدْ على أنْ أقمت جدارَك، وحسَّنْتَ دارَك؛ ولا تنسَ أنها الآلةُ التي رَفَعَتْك، والهالةُ التي أطلعتْك؛ ولا تَحجُبْ ذاتَ الوطن بذاتِك، أو تَطْرِفِ العيونَ عن وجْهِه بقَذَاتِك، ولا تكنْ كالسَّرح العظيمِ إذ نَسِيَ خَلْقَه، إذْ عَلا على الأرض وهي أُمُّه، ماؤُها عُصارةُ عودِه، وطينُها جُرثومةُ وجودِه، حتى إذا

= [قلت: هو عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحَسَني، من شعراء المنادمة، وخطيب الثورة العرابية، المتوفَّى سنة (١٣١٤هـ = ١٨٩٦م). ولعل شوقي حطَّ عليه لأنه كان يجاهر بانتقاد الخديوي توفيق، وكان من وكْدِه تِبيانُ مثالبه على أسلوب من أساليب السخرية والهُزْء].

(١) **الحَرَابي**: جمع حِرْباء، حيوان معروف يستقبل الشمسَ ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانًا.

(٢) **باستور**: عالم كيماوي فرنسي (١٨٢٢-١٨٩٥) صاحب مباحث نظرية الميكروبات في الأمراض المعدية، ومخترع المصل الواقي والشافي، وهو من أكبر الرجال الذين خدموا الإنسانية بعلمهم.

(٣) **كمال**: هو الغازي مصطفى كمال باشا، أسد أنقره، وبطل تركيا المشهور.

[**قلت**: في هذا موضع للقول؛ فما كان أتاتورك يومًا أسدًا، بل كان مخسوسَ القـدر ضئيله، ولا يعلم إلا الله عدد حماقاته التي ركبها محادة لله ورسوله. وقد تنكَّر له المؤلف بعد أن بدتْ مخازيه. راجـع ـ خُطِئ عنك السوء ـ كتاب «شـوقي أو صداقة أربعين سنة» لأمير البيان شكيب أرسلان (ص٢١٢-٢١٧)].

تَرعْرَعَ وكَبِر، أخفاها وظَهَر، وحَجَبَ عنها الشَّمسَ والقمر؛ خلعَتْ عليه ما نَضَرَ ورَفّ، وألقى عليها ما يَبِسَ من الورَق وجفّ[١].

والوطنُ لا يتمُّ تمامُه، ولا يَخْلُصُ لأَهْلِه زِمامُه، ولا يكونُ الدارَ المستَقِلَّة، ولا الضَّيْعَةَ الخالصةَ الغَلَّة، ولا يقالُ له البلدُ السيد المالك، وإنْ تحلَّى بألقاب الدُّول والممالك، حتى يُجيلَ العِلْمُ فيه يَدَ العِمارة، ويَجمعَ له بيْن دُولاب[٢] الصِّناعةِ وسُوقِ التِّجارة.

فيا جيلَ المستقبل، وقَبِيلَ الغد المؤمَّل، حارِبوا الأُمِّيَّةَ فإنها كَسْحُ[٣] الأُمم وسَرَطانُها، والثَّغرةُ التي تُؤْتَى منها أوطانُها، ظُلماتٌ يُعَرْبِدُ فيها خُفَّاشُ الاستبداد، وقبورٌ كلُّ ما فيها لِضَبُعِه غنيمةٌ وزاد. وتَذرَّعوا[٤] بذرائعِ العِلمِ الصَّحيح، اطْلُبُوه في مدراسِ الزَّمانِ وحَلَقاتِه، وخُذوهُ عن جَهابذَتِه وثِقاتِه. واعلموا أن أَنصافَ الجُهَّال لا الجهلَ دَفَعوا، ولا بقليل العِلمِ انتَفَعوا. وبَنو الوطنِ الواحدِ إخوةٌ وإنْ ذَهَبَ كلُّ فريق بكتاب، ووصلَتْ كلُّ طائفةٍ من باب، واتَّبَعَ أُناسٌ الإنجيل، وأُناسٌ اتَّبَعوا التَّنزيل[٥]. وكلُّ بلادٍ تَسُوسُها حكومةٌ فاضِلة، وتُقَيِّدُها القوانينُ العادِلة، وتَعْمُرُها جماعةٌ عاقِلةٌ عامِلة، إنما يُفْرَقُ فيها

---

(١) **تتحمد**: تمتن. **وحمل عليه الشيء**: ألحقه به. **والهالة**: دارة القمر. **وطرَف البصر عنه**: صرفه. **والقذاة**: ما يقع في العين ويوجعها. **والسرح**: شجر. **ورَفَّ النبات**: اهتز.
وقد أبدع في تنبيه مَن يَمُنُّ على الوطن بخدمته بالشجرة التي ترتفع عن الأرض وتتعاظم عليها وهي إنما تمص منها مادةَ الحياة.

(٢) **الدولاب**: الآلة.

(٣) **الكسح**: داء في اليدين والرجلين يثقلها عن الحركة.
وقد انتقل الكاتب من الوصف والتحديد البياني إلى ذكر الدعائم التي تُبنى عليها عظمةُ الوطن ويُشاد عليها صرحُ استقلاله، وهي: **العِلم، والتجارة، والصناعة**. وحذَّر بنوع خاص من أنصاف الجهال أو أنصاف المتعلمين كما حذَّر من الجهل.
وبمناسبة ذكر باستور في الفقرة السابقة نذكر أن هذا الرجل العظيم كان يقول: «قليل من العلم يُبعد عن الله، وكثير من العلم يعيد إلى الله».

(٤) **تذرعوا**: أي: توسَّلوا.

(٥) **التنزيل**: القرآن.

بين الوطن الذي هو الحياةُ وشُئُونُها، والدُّنيا وشُجونُها، والحكومةُ نُظُمُها وقانونُها، والمَمْلكة سُهولها وحُزُونها[(١)]، والدَّولةُ أطرافُها وحُصونُها، وبيْن الدِّينِ الذي هو السَّماءُ الرَّفيعة، والذِّرْوةُ المَنيعة، وِلايةُ الضَّمائِر، وسياسةُ السَّرائِر[(٢)].

وما وطنُ المحسنينَ إلَّا الأُسْرةُ الكبرى، والسَّقفُ الواحد، والمنزلُ الحاشد، القومُ في ظلالِه، على البِرِّ وخِلالِه، إخوانٌ مُتَصافون، وأهلٌ مُتَناصِفون، وجيرانٌ مُتآلِفون، قَصْدٌ في البَغضاء، وبُعْدٌ عن الشَّحْناء، ألْسِنةٌ عفيفة العَذَبات، وصدورٌ نظيفة الجَنَبات، تراهم كالنَّحْل إنْ سُولِمَتْ عَمِلَتِ العَسَل، أو حُورِبَتْ أَعْمَلَتِ الأَسَل. فاطْبَعِ اللهمَّ كنانَتَك على هذا الغِرار، وأَعِدْها كما بدأْتَها مَحِلَّةَ الأبرار، واجعل أبناءَنا أحرارًا ولا تجعلْهم أنصافَ أحرار[(٣)].

ربَّنا وأَنْزِلْهُم على أحكام العقول وقضايا الأخلاق، ولا تُخْلِهم مِنَ العواطِف، وإنْ كنَّ عواصِف. ولا تَكِلْهُم للأَهواء؛ فإنَّها هَواء. وخُذْهم برُوحِ العصرِ وسُنَّةِ الزمان، واجعلْهُم حَفظةَ العرْش وحَرَسةَ البَرْلَمَان[(٤)].



---

(١) **الحَزْن من الأرض:** ما غَلُظ.

(٢) ألا يكون الدينُ داعيةَ تفرقةٍ في الوطن. ولله دَرُّ المؤلفِ حيث يقول شعرًا كما يقول هنا نثرًا:

الــديــنُ لله مَــن شــاءَ الإلــهُ هَــدَى ... لـكـل نـفْـسٍ هُــدًى في الـديـن يعنيها

[**قلت:** البيت من قصيدة «الدستور العثماني»، وهي في «الشوقيات» (١/ ٢٨٩) ط. المكتبة التجارية = (١/ ٣٣٩/ الشوقيات الصحيحة بعناية الرفاعي)، مع اختلاف وقع في حشو المِصْرَاع الأخير «=العَجُز» وضَرْبه؛ فهو فيها:

الــدِّيــنُ لله، مَــن شــاءَ الإلــهُ هَــدَى ... لـكـلِّ نـفْـسٍ هَــوًى في الــدِّيـن داعـيـهـا]

(٣) **العذبات:** الأطراف. **والأسل:** الرماح، وهنا بمعنى الإبر. **الغِرار:** المثال الذي تُضرب عليه النصال.

(٤) ونِعْمَ ما ختم به من الدعوة إلى الوئام والتصافي حتى تعود الكنانة إلى سابق مجدها. ولم يكن يَسَعُه أن يختم نشيد الوطن هذا دون النقر على وتر الأخلاق، وهو الذي طالما دعا إلى الأخلاق، بل هو القائل ذلك البيتَ المشهور الذي لا نعرف بيتًا كان أكثرَ منه موضوعَ استشهادٍ للكُتَّاب والأدباء في ربع القرن الماضي:

وإنَّمــا الأُمَــمُ الأَخـــلاقُ مــا بَـقِـيَـتْ ... فــإنْ هُــمُ ذهـبـتْ أخـلاقُـهـم ذهـبـوا



الجُنْديُّ المَجْهُول

«**تكريم الجندي المجهول**: فكرةٌ أوحَتْ بها الرغبةُ في تمجيد البطولة الصامتة؛ البطولةِ التي تعمل في الخفاء، ولعلَّ هذه الفكرةَ أجملُ ما ولَّدَتْه الحربُ الكبرى من الأفكار[(١)] .

مَن هو الجنديُّ المجهول؟ وما هي حكايتُه؟

اسمع تلك الحكايةَ؛ ففيها عبرةٌ وذكرى:

أودَتِ الحربُ العالمية الأخيرةُ بآلاف الآلاف من الجنود البُسَّل، وكلٌّ منهم يدافع عن قومه وبلاده، فسُجِّلَتْ أسماؤُهم على ألواح البرونز وقِطَع المرمر؛ تخليدًا لذكرهم. ولكن هناك من بينهم مئات الألوف ماتوا كذلك مِيتة الأبطال، ولكنَّ أسماءهم ضاعت؛ لأن جثثهم الممزَّقةَ اختلطت بجثث رفاقهم، فلم يكن من سبيل إلى تبيُّن شخصِهم أو تحقيقِ هُوِيَّتِهم.

لذلك أرادت فرنسا ـ وحذَتْ سائرُ الدول حَذْوَها ـ أن تتخير واحدًا من هؤلاء الأبطال المجهولين ترفعه إلى ذُروة المجد، وتقيمَ له من معالم التكريم ما لم تُقِمْه لأكبر الغزاة الفاتحين، فتُكرِّمَ في شخصه المجهولِ مئاتِ الألوف من الأبطال الذين تنكَّرَتْ جثثُهم على الناس.

هذا منشأ تلك الفكرةِ النبيلة. فاسمع الآنَ كيف كان تنفيذُها في فرنسا:

كانت موقعة «ڤردان» أعظمَ موقعةٍ دارتْ رحاها بين أعظم جيشين في العالَم، دامت شهورًا طِوالًا، وسالت فيها مُهَجُ مئات الألوف على شظايا القنابل وظُبَى السيوف[(٢)]، حتى أصبحتْ أرجاؤها جبَّانةً مترامية الأطراف.

(١) [لكن الإسلام –فيما أعلم– يأباها، وهو متبوع لا تابع، مسموع لا سامع]. (و)

(٢) [**ظُبَة السيف**: طرفه وحَدُّه]. (و)

ومن القتلى الراقدين في ثَراها تقرَّرَ اختيارُ الجنديِّ المجهول، فأخذوا من أنحاء ذلك الميدان العظيم ثماني جثثٍ لم تُعْرَفْ لمَن هي؛ اختاروا ثمانيةً من بين خمسمائة ألفِ قتيلٍ، ووُضِعَتْ كلُّ جثة في نعش، ونُقلَتِ النعوش الثمانيةُ في ليل (١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠) إلى حصن (ڤو) حيث أُوقدتْ حولها الشموع، وقامت الجنود تحرسها. ثم تقدم القائد وأشار إلى أحد جنود الفرقة [١٣٢]، فخرج الجندي من الصف، ودَفَع إليه القائدُ باقةً من زهر القَرَنْفُلِ الأبيضِ والأحمر، وقال له أن يدور دورتين حول النعوش الثمانية فيلقي بالباقة على نعش منها، ففعل، وما كاد يلقي زهرات القَرَنْفُل على أحد النعوش حتى عَزَفَتِ الموسيقى بنشيد المرسلييز، ورفع الضباط سيوفَهم للتحية. ومن تلك الدقيقةِ أصبح الراقد في ذلك النعش مثالَ التضحية والتفاني، وصار تكريمُه تكريمًا للمليون ونصف المليون من الجنود الذين قُتلوا في الحرب دفاعًا عن فرنسا وطنِهم.

ثم نُقل ليلًا إلى باريس، وفي اليوم التالي أُقيمَ له احتفالٌ نَدَرَ أنْ شهِدَتْ تلك العاصمةُ العظيمة ما يضارعه فخامةً وأُبَّهةً وتأثيرًا في النفوس؛ مشى في موكبه الوزراءُ والقُواد ورجالُ الدولة، وعشراتُ الألوف من الناس، تتقدمهم [٨٠٠] رايةٍ من رايات فِرَق الجيش المختلفةِ حتى وصلوا به إلى (قوس النصر) حيث قام ضريحُه. وعلى أثر ذلك أصبح الآباء والأمهات والأزواج والأخوات يحجون إلى هذا الضريح، وكلٌّ يعتقد أن فيه ابنًا أو زوجًا أو أخًا. وما زار باريسَ مَلِكٌ أو وزير أو كبيرٌ إلَّا عَدَّ مِن أوَّلِ فروض المجاملةِ زيارةَ قبرِ الجنديِّ المجهول وتحيَّتَه ووضْعَ الزَّهرِ عليه.

وما كان للمؤلف أن يترك مثل هذا الموضوع بلا جَوْلَةٍ لخياله فيه، وقد أراد أيضًا أن يضع زهرة من زهر أدبه الرائع على ضريح الجندي المجهول، فكتب هذا الفصل»:



ذلك الغُفْلُ في الرِّمم، صار نارًا على عَلَم، جَمَعَ ضحايا الأُمم، كما جمَعَ الكتابةَ القلم، أو الكتيبةَ العَلَم(١).

تمثالٌ من إنكار الذات، والفناءِ في بقاءِ الجَماعات، وصورةٌ من التَّضحيةِ المبرَّأة من الآفات، المنزَّهة عن انتظار المكافاة، وهَيكلٌ على الواجب من عِظامٍ أو رُفات. تَقرأُ على صفحاتِه العَجَبَ العاجب، تَفْسير الجلالَيْنِ مِن موتٍ وواجِب. وتَتنقَّلُ من آيةٍ إلى آية، وترى كيف جَرَى الإيثارُ للغاية، وكيف سالتِ النفوسُ على جنَبات الرَّاية.

ولا يَعلمُ إلَّا اللهُ لِمَنِ الجِيفةُ المحظوظة، أو تلكَ البقايا المَصونةُ المحفوظة، أَلِرِعْدِيد، أَمْ لصِنْدِيد؟ ولبطلٍ مَشُوق، أمْ لُكْرَهٍ مَسُوق؟ ولشيطانٍ استعماريّ، أم هي لِربِّيٍّ حَواريّ؟ ولمَغْمورٍ مِن سَوادِ الجُند؟ أمْ لمأثورٍ مِن بِيضِ الهند؟ وهل كانت لِبْدَةَ أُسامة، أم كانت جلدةَ النَّعامة؟ وهل هي هيكل المتنبِّي أمْ وِعاءُ أبي دُلامة(٢)؟(٣)

وكيف تُعرفُ جُثةٌ نَكَّرتْها الأيَّام، وسارَتِ الأرضُ فيها سُنَّتَها في الرِّمَام، إلى أن وقعتْ عليها يدٌ في الرِّجام، كما تقعُ على النصيب الرابحِ يدُ الغُلام، فخرجَتْ بها من غمرة الرِّمم، وحُفرةِ الأُمَم، وبُؤْرةِ العَدَم(٤).

---

(١) **الغُفْل**: ما لا علامة ولا سِمَة فيه، وهو أيضًا الشاعر المجهول أو الكِتابُ الذي لم يُسَمَّ واضِعُه. **الرمة**: جمعها رِمَم ورِمَام: العظام البالية. أي: إن هذه الجثة المجهولةَ بين الجثث قد أصبحت عنوانَ الشهرة ورمزَ التضحية كما فصّل ذلك في الفقرة التالية. [قلت: والعَلَم في الموضع الأول مرادُ به: الجبل، وهو في آخر الفقرة: الراية].

(٢) **المحظوظة**: مِن حَظَّ: كان ذا حظٍّ. **والرِّعديد**: الجبان الكثير الارتعاد. **والصِّنديد**: السيد الشجاع. **المغمور**: المجهول الخامل النسب. **وغمَرَه القومُ**: عَلَوْه شرفًا. **والرِّبِّي**: واحد الرِّبِّيين، وهم الجماعة من الناس. **والحواري**: ناصر الأنبياء. **وأسامة**: الأسد، وهو مضرب المثل في الشجاعة، كما أن **النعامة** مضربه في الجُبن.

أي: إن الله وحدَه يعرف لمن هذه الجثةُ التي كان لها كلُّ هذا الحظ في التكريم، أهي جثة رجل كريمٍ عظيم، أمْ جثةُ واحدٍ من سَواد الناس.

(٣) [**قلت**: أبو دُلامة شاعر معروف، له نوادرُ، واسمه زَنْد بن الجَوْن. وفي «الأغاني» (١٠/ ٢٣٧) أنه كني أبا دلامة باسم جبل بمكةَ يقال له أبو دلامة، كانت قريش تَئِدُ فيه البناتِ في الجاهلية. تُوفي سنة إحدى وستين ومائة ١٦١هـ].

(٤) **الرمام**: جمع رمة كما تقدم. **والرجام**: جمع رَجَم: القبر. **والغمرة**: المزدحم. =

وإذا هي تنفصلُ عن سَوادِ الهامِدين، وتَتَّصلُ بالأَفراد الخالدين. تَهْجُرُ مغموراتِ الكفور، وتَعْمُرُ مشهوراتِ القبور. وبيْن ذلك جنازةٌ للعصر حَوْلَهَا ضَجَّة، وللأرض تحتَها رجَّة، مواكِبُها مِلْءُ اليَبَس واللُّجَّة. أعلامٌ منكوسة، وقنًا صُمٌّ وكتائبُ خُرْسٌ وأَنغامٌ محزونة، ودموعٌ مَذْروفة. وملوكٌ أو رُسلُ ملوك، وبَرْقٌ يَروحُ ويَغْدو في السلوك، ويَنْعَى الزاجليَّة والأَلُوك. فهل شيَّعَتْ نابليون، أو ولنجتون، وهل بلَّغَتْ هوجو البانثيون؟ سَوَّى الحظُّ بيْن هؤلاء، وبيْن ذلك النَّكِرَةِ في الأشلاء، وأَجْزَلَ للَقِيطِ الموتى من العطاء، كما يجزل أحيانًا لِلُّقطاء(١).

اسألِ العصرَ فيمَ نَبَشَ القبور، وقلَّب الهامِدِينَ البُور، مِن أجْلِ هذا الشِّلْوِ المتبور، حتى التَقَطَه بيد الحظِّ الوَهوب، أو بِدِ السَّيَّارةِ المبارَكةِ على ابن يعقوب، (يُجِبْكَ): أليس كلُّ مَن شَهِدَ النَّفيرَ العامَّ فهو ذائِدُ الوطنِ وحاميه؟ وكلُّ مَن وُجِد في الحفير الجامعِ فهو مشتريه بمُهْجَته وفاديه؟ مجهول بَذَلَ المجهود، وجادَ بالنَّفْسِ وذلك أقصى الجُود، في موطنٍ سَوَّى بيْن القائد والمَقُود، والسائد والمَسُود، توحَّدَتِ النارُ وتشابَهَ الوَقود. وما حَمَلَ أعباءَ الجهاد مِثْلُ الميْت، كالأساس دُفِنَ فكان قِوَامَ البيت.

= **أي**: إن الحظ أصابه حين اختاروه من بين الألوف من الجثث كما تقدم في وصف الحفلة التي أُقيمت لاختيار الجندي المجهول.

(١) **ملء اليَبَس واللُّجَّة أي**: تسير برًّا وبحرًا. **الكتيبة الخرساء**: الفِرقة من الجند لا يُسمع لها صوتٌ؛ لوقار أهلها في الحرب. **البرق الذي يغدو ويروح في السلوك**: هو الرسائل التلغرافية. **الزاجلية**: الحمام الزاجل؛ حمام الرسل. **الألوك والأَلُوكة**: الرسالة. وهذا وصف المواكب التي أشرنا إليها يوم نقل رفات الجندي المجهول إلى قوس النصر. **نابوليون**: بطل فرنسا الكبير، وأشهر القُوَّاد العسكريين. **ولنجتون**: من مشهوري قُواد الإنجليز، اكتسب شهرة بعيدة بانتصاره على نابوليون في موقعة «واترلو» [قلت: كانت يوم ١٨/ ٦/ ١٨١٥م]. **فيكتور هوجو**: هو أشهر شعراء فرنسا في القرن التاسعَ عشرَ [قلت: تُوُفِّي في ٢٢/ ٥/ ١٨٨٥م. وكان مولده في ٢٦/ ٢/ ١٨٠٢م]. **البانثيون**: اسم هَيكل أُقيم في روما القديمة لتكريم (جميع الآلهة)، والبانثيون المعني به هنا هو: الصرح العظيم المشيَّد في باريسَ الذي يضم رفات مشهوري الرجال. **والأشلاء**: جمع شِلْو، وهي الأعضاء بعد البِلى.

كلُّ حيٍّ يموت، وكلُّ ذَخيرةٍ تَفوت، وكلُّ راحلٍ عن قومه وإنْ وجَدَهم بالأمس شَتَّى فألَّف، أو نَكِراتٍ فعرَّف، وخلَّف فيهم مِن فضْل ما خلَّف - لا يَسْلَمُ على الموت من حاسدٍ يُزوِّرُ في الصحيفة، أو حاقدٍ يتشفَّى بالجيفة، فيا لَكِ مُضْغةً تَقرِضُ الكفنَ الجديد، وتَسبِقُ الدُّودَ إلى الصَّديد، إلَّا هذا الجنديَّ المجهول فقد خَلَتْ جنازتُه مِنَ الهامس والهامز، والغامِطِ والغامز. فقُلْ لمَن لم يَعْرِفْهُ مِنَ الناس: طُوبَى لك، ما أنعمَ بالَك، وما أنقى كفنَك وسِرْبالَك[١].

قبرٌ بيْن (حنيةِ النصر)، وبِنْيةِ النَّسر، وفوقَ طريقِ العصر. لو كان لعيسى ضريح، لقلتُ: قبرُ المسيح، كلُّ جريحٍ إليه يستريح، يقف به المحزونُ المُتهالِك، يقول: «**هذا كلُّه قبرُ مالك**»[٢]. وكأنَّ كلَّ أختٍ حَوْلَه الخنساء، وتحتَ ذلك الحَجَرِ صَخْر؛ وكلَّ أُمٍّ ذاتُ النِّطاقَينِ أسماء، وعبدُ اللهِ في ذلك القبر[٣].

---

(١) أي: كل ميت عمَّ فضْلُه لا يخلو من حاسد أو حاقدٍ يَعمَلُ على انتقاص قدْرِه، إلا هذا الجنديّ المجهول؛ فقد كان بمأمنٍ من الغمز والهمز.

(٢) [**قلت**: هذا من قول مُتَمِّم بنِ نُوَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، من أبيات له سائرةٍ يَرْثي بها أخاه مالكًا، وهي التي يقول فيها:

لقد لامني عند القبور على البكا	رفيقي لتَذْراف الدموع السَّوافكِ
«أَمِنْ أجلِ قبرٍ بالمَلا أنت نائحٌ	على كل قبرٍ أو على كل هالكِ»
فقال: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه	لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكادِكِ
فقلت له: إن الشَّجَا يبعث الشجا	فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

و«المَلا»و«اللوى» و«والدكادك» أسماء مواضعَ في ديار بني أسد.

والأبيات في «حماسة أبي تمام»، و«أمالي القالي» (٢/ ١).

(٣) **حنية النصر أو قوس النصر**: هو أفخم بناءٍ من نوعه قام في وسَط ميدان من ميادين باريسَ، يتشعَّب منه اثنا عشرَ شارعًا، وقد أَمر ببناء هذا الصرح نابوليون الملقب بالنسر؛ ولهذا سمَّاه المؤلف بِنْيَةَ النَّسر. وكان ذلك في فبراير سنة [١٨٠٦]، ولم يتمَّ فتحُه إلا في يوليو سنة [١٨٣٦]. وعلوُّ هذا البناء [٥٠ مترًا] بعرض [٤٥ مترًا] وسُمْك [٢٢ مترًا]. وهو مزيَّن بأبهى النقوش، وأجملِ الرموز. وقد حُفِرَتْ عليها أسماءُ مشهوري القُوَّاد والمواقع الكبيرة.

وذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وقصة **عبد الله بن الزبير** حينما نصحَتْه أُمُّه أسماءُ بالمُضِيِّ في الحرب بعد أن خذله أنصاره وخاف من أن يمثِّل به الأعداء معروفةٌ.



دُروسٌ عاليةٌ تُلْقَى على الشباب تُعلِّمُهم كيف جَعَل آباؤُهم حمايةَ الغاب، فوقَ تفاتُنِ الأحزاب، وفِتنةَ الأسماءِ والأَلْقاب، حتى قَرُب تقديسُ الوطن الكريم، من عبادة العليِّ العظيم! وحتى تقرَّبوا إلى الأوطان، بالذبحِ المنكَر، كما ذُكِرَ اسمُ الله على القُرْبان، واسمُ القُرْبانِ لم يُذكَر.

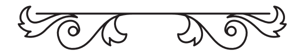
والمجدُ أبعدُ أسفارِ الرِّجال، وله أَزْوَادٌ وله رِحَال[1]؛ جِهادٌ طويل، وصبرٌ جميل، وعَقَباتٌ بكلِّ سبيل. والجنديُّ المجهول ما سار مِن لحدٍ إلى لحد، حتى رَقِيَ أسوارَ المجد، ودخلَ مملكةَ الخُلْد، وكان الطريقُ نَقِيًّا مِنَ الشَّوكِ وكلُّه وَرْد. ذهبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا عن ولد يرمينا بجَنادِلِ أبيه، ولا أخٍ يَسحَبُ علينا أكفانَ أخيه، وكفانا تَجَنِّيَ الشِّيعة، وإدلالَ الصَّنيعة، وكلَّ حِرْباءَ يَتسلَّقُ النَّاسَ شجرًا إلى الشَّمس، يَعْبُدُها على مَناكِبِهم مِنَ المَهدِ إلى الرَّمْس.



(١) **الأزواد**: جمع زاد. **والرِّحال**: جمع رَحْل، وهو مركب البعير أو ما تحمله في سَفَرك من متاع.



قناة السّويْس



«كتَبَ المؤلف هذه القطعةَ بمناسبة اجتيازه قناةَ السويس في طريقهِ إلى الأندلس التي اتَّخذها محلَّ إقامةٍ له إبَّانَ الحرب(١). وهي درسٌ جميل بليغ في تاريخ مِصرَ منذ أقدم العصور، نسَج فيها نثرًا على المِنوال الذي نسَج عليه شِعرًا في قصيدته الهمزية المشهورة(٢) التي قدَّمها إلى المؤتمر الشرقي الدولي الذي عُقد في مدينة جنيف في سبتمبر سنة ١٨٩٤، ولئِنْ أشار فيها أكثر من مرة إلى إسماعيلَ؛ فلأَنَّ فتح هذه القناة تمَّ على عهد ذلك الأمير العظيم بعد تذليل صِعابٍ كثيرة، وكان افتتاحُها في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م = ١٢٨٦هـ. وقد دعا الخديو إسماعيلُ إلى هذا الافتتاحِ جميعَ ملوك أوربةَ، وألوفًا من الأمراء والسفراء وأقطابِ السياسة وحمَلةِ الأقلام وأرباب الفنون والصنائع والتجارة، حتى ضاقتْ بهمُ القصورُ فنصَب لهم في الصحراء ألْفَ سرادق، وأنزل الإمبراطورةَ أوجيني(٣) (عقيلة الإمبراطور نابوليون الثالث) وسائرَ الملوك وأُمراء الأسرات الملكية في قصر مُنِيفٍ شاده خصيصًا لهم. وفي ١٦ نوفمبر أُقيمت حفلة دينيَّةٌ اشترك فيها مشايخُ الإسلام وأساقفةُ النصارى وكهنة اليهود. وفي الصباح التالي ابتدأ الاحتفال بإطلاق المدافع، ثمَّ تقدَّم يختُ

(١) [قلت: يعني الحربَ العامة الأولى، سنة ١٩١٥ ميلادية، وذلك بإيعاز الخديوي عباس حلمي إليه بعد خلعه باختيار مقام غير مصر ... ثم قَفَل شوقي راجعًا إلى مصرَ بعد أن وضعت الحرب أوزارها، آخر سنة ١٩١٩. وانظر «أعلام الزِّرِكلي» (١/ ١٣٦-١٣٧)، وكتاب «شوقي» لشكيب أرسلان (ص٤٨)].

(٢) [قلت: هي المسماة: «كبار الحوادث في وادي النيل»، وقد صدَّر بها المؤلف ديوانه].

(٣) [قلت: تُوفيت أوجيني في الحادي عشرَ من يولية، سنة عشرين وتسع مئة وألف من الميلاد [١٩٢٠]، وقد هَدَفَتْ للرابعة والتسعين من عمرها. وكانت تعتهد مصرَ متخفية تطوف ببيوت أرامل إسماعيلَ وغيرها، وذلك بعد أن قلبتْ لها الدنيا ظهرَ المِجَنِّ وثار عليها الشعب الفرنسي بعد أن وضعت الحرب السبعينية مع بروسيا أوزارها، وولت هاربة إلى إنكلترا هي وزوجها نابليون].

الإمبراطورة أُوجيني في القناة، وتَبِعَه يخْتُ فرنسوي جوزيف إمبراطور النمسة، ويخْتُ فردريك غليوم أمير بروسية، فيُخوتُ سائر الملوك والأمراء، فالسُّفُنُ المُقِلَّةُ للمَدْعُوِّينَ والمتفرجين وعددها ٦٨ سفينةً، ولما بلغ اليخت الإمبراطوريُّ بحيرةَ التمساح حيَّتْه ثلاثةُ مراكبَ حربيةٍ مصرية بإطلاق المدافع، فجاوَبَتْها مدافعُ البَرِّ، وعزفت الموسيقى، وهتفت الجماهير المحتشدة على الشاطئ من القبائل والأقوام المختلفي الجنسيات. وكان الخديوي إسماعيلُ قد جمعهم في الإسماعيلية من كل أنحاء مصرَ والصحراءِ والسودان، ومعهم نساؤهم، وأولادهم، ونُوقهم، ومواشيهم، وغِزْلانُهم. فكان منظرُ تلك الأُلوف -مِن بَدْوٍ وحضر ودراويشَ ومغاربةٍ وسودانيين ... إلخ، بأزيائهم وألوانهم المختلفة- مشهدًا فريدًا في بابِهِ قلَّما أُتيح للعين أن تقع على مثله. وفي [١٩] خرجَتِ السفنُ من بحيرة التمساح إلى البحيرات المُرة. وفي اليوم التالي بلغَتِ البحرَ الأحمر قُبَيْلَ الظهر بعد أن اجتازت القنال، ومن ذلك العهد فُتحَتْ هذه الطريقُ للمراكب».

تِلْكُما يا ابْنَيَّ[١] القناة، لقَومِكما فيها حياة، ذكرى إسماعيلَ ورَيَّاه، وعُلْيَا مفاخِرِ دنياه، دولة الشرق المُرَجَّاة، وسلطانُه الواسعُ الجاه، طريقُ التجارة، والوسيلة والمنارة، ومَشْرَعُ الحضارة[٢].

تَعبُرانِها اليومَ على مُزجاة، كأنها فُلْكُ النجاة. خرجَتْ بنا بيْن طوفانِ الحوادث، وطُغيانِ الكوارث. تُفارِقُ بَرًّا مُغتصِبُه مُضَريُّ الغضْبة، قد أَخَذَ الأُهْبَة، واستَجْمَعَ

(١) [هما ابناه عليٌّ وحسين، وقد كانا صُحبَتَه في تلك الرحلة، مع أختهما وابنتها، وأمهم، ومربية تركية، وخادمان، وطاهٍ؛ عشرة كانوا. انظر كتاب «أبي شوقي» لحسين أحمد شوقي (ص٣٠-٣٥)، و«اثنا عشر عامًا في صحبة أمير الشعراء» (ص٥٤)]. (و)

(٢) ذكرى إسماعيل: راجع ما ذكرناه في التوطئة. **المشرع**: المورد.

كالأَسدِ لِلْوَثْبة. وتُلاقي بحرًا جنَتْ جواريه، ونَزَتْ بالشَّرِّ نوازيه، وتمثَّلَتْ بكلِّ سبيلٍ عَواديه. مملوءًا ببَغَتات الماء، مُتْرَعًا بفُجاءاتِ السماء، من نُونٍ يَنسِفُ الدَّوارع، أو طيرٍ يَقذِفُ البِيضَ مَصارعَ(١).

فقلت: سِيري عوَّذْتُكِ بوديعة التابوت، وبصاحِب الحوت(٢)، وبالحيِّ الذي لا يموت. وأَسْرِي يا ابنةَ اليمِّ زِمامُكِ الرُّوح، ورُبَّانُكِ نوح، فكَم عليكِ من منكوبٍ ومجروح(٣).

إنَّ للنَّفْيِ لَروعة، وإنَّ للنَّأْيِ للَوْعة. وقد جرَتْ أحكامُ القضاء، بأنْ نَعبُرَ هذا الماء، حينَ الشَّرُّ مُضْطَرِم، واليأسُ محتدِم، والعدوُّ منتقِم، والخَصمُ مُحتكِم، وحينَ الشامتُ جَذْلانُ مبتسِم، يَهْزأُ بالدمع إن لم يَنْسَجِم، نفانا حُكَّامٌ عُجْم، أعوانُ العدوانِ والظُّلْم، خلَّفْناهم يَفرَحون بذهَبِ اللُّجْم، ويَمْرَحون في أَرْسانٍ(٤) يُسمُّونها الحُكْم(٥).

(١) **المزجاة:** السفينة، مِن: أزجى الفُلكَ: ساقه وأجراه. **ونَزَتْ:** وثَبَتْ.

طوفان الحوادث وطغيان الكوارث: يكنى بها عن ويْلات الحرب الكبرى.

الغضبة المُضَريَّة: نسبة إلى مُضَر بن نزار، أبو القبيلة المعروفة باسمه. **الجواري:** السفن. **النون:** الحوت، ويقصد به الغواصة.

أي: إننا نغادر اليومَ برًّا تحكَّمَ فيه الغاصبُ لنلاقي بحرًا بدَتِ الوَيلاتُ في كل جنباتِه؛ من غواصات تُغرِق السفن، وطيَّاراتٍ تُلقي بالقذائف فيكون منها الموت.

(٢) [**قلت:** في هذا الكلام موضع للنكير؛ إذ لا يجوز التعويذ إلا بالله أو بأسمائه وصفاته، لا يجوز بمخلوق كائنًا كان].

(٣) **وديعة التابوت:** هو موسى. **وصاحب الحوت:** يونس.

(٤) [**قلت:** **اللُّجْم واللُّجُم:** جمع لِجَام. **والأَرْسَان:** جمع رَسَن، وهو ما يوضع على الأنف من زِمَام، وهو أيضًا الحبل].

(٥) **انسجم الدمع:** سال. وكنى بذهب اللُّجم وأرسانِ الحُكْمِ عن ذُلِّ الحكومة تحت الحماية.

[**قلت:** يعني بالحكومة الحكومةَ المصرية، وبالحماية الحمايةَ التي فرضتها إنكلترا على مصرَ لتبعيتها للخلافة العثمانية التي وقفت تساند ألمانيا ضد إنكلترا وبقية الحلفاء في الحرب العامة الأولى، فمِن جلل ذلك فرضت إنكلترا الحماية على مصر، وأعلنت فيها الأحكام العرفية، وخلعتِ الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان بينه وبين السلطان العثماني ودولةِ الخلافة أواصر، وأقامت مكانه عمَّه حسين كامل، =

ضَرَبونا بسَيفٍ لم يَطْبعوه، ولم يَمْلِكوا أن يَرْفَعوه أو يَضَعوه. سامَحَهم في حقوق الأفراد، وسامَحوه في حقوق البلاد، وما ذَنْبُ السَّيفِ إذا لم يَستحي الجَلَّاد[1]؟

ماذا تَهْمِسان؟ كأنِّي أَسمَعُكما تقولان: أيُّ شيءٍ بَدَا له، على هذه الضاحِيَة؟ وماذا شَجَا خيالَه، مِن هذه الناحية؟ وأيُّ حُسنٍ أو طِيب، لِمِلْحٍ يَتصبَّبُ في كَثِيب؟! ماءٌ عَكِر، في رملٍ كَدِر، قناةٌ حَمِئَة، كأنها قناةٌ صَدِئة، بل كأنَّها وعَبْرَيها رِمال، بعضُها متماسِكٌ وبعضُها مُنهال، وكأنَّ راكبَ البحرِ مُصْحِر، وكأنَّ صاحبَ البَرِّ مُبحِر[2].

رُوَيْدَكُما ليسَ الكِتابُ بزينة جِلْده، وليس السَّيفُ بحِلْيةِ غِمْدِه، تلك التَّنائِف، مِن تاريخكم صحائِف، وهذه القِفَار، كُتُبٌ منه وأسفار، وهذا المَجازُ هو حقيقة السِّيادة، ووثيقةُ الشَّقاءِ أو السَّعادة؛ خَيطُ الرَّقَبة، مَنِ اغتَصبَه اختصَّ بالغَلَبة، ووقف للأعقاب عَقَبة. ولو سَكَتُّ لنطقَتِ العِبَر، وأين العِيَانُ وأين الخَبَر؟!

=وخلعت عليه لقب «سلطان»؛ مضاهاة للسلطان العثماني نكايةً به، ومنعت الاجتماعات، وراقبت الصحافة، وألغت الأحزاب، وسخَّرت اقتصاد البلاد لمصلحة الجيش الإنجليزي ... راجع ـ إن شئت ـ أوائل المجلد الثالث عشرَ من «التاريخ الإسلامي» للأستاذ محمود شاكر السوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد تُوفي أثناء مراجعة تجارِب الطبع الأولى لهذا الكتاب؛ صباح يوم الأحد غرة صفر الخير ١٤٣٦ هـ = ٢٣/ ١١/ ٢٠١٤م].

(١) **طَبَع السيفَ**: عَمِلَه وصاغه. **والمراد**: أنهم اتَّخذوا الحكومة ذريعةً في يدهم لإلحاق الأذى بنا، وتركوا هذه الحكومة تفعل ما تشاء بحقوق الأفراد؛ لأنها أباحت لهم حقوق البلاد.

(٢) **شَجَاه**: حَزَنَهُ. **الكثيب**: التل من الرمل. القناة الأولى: التُّرْعة، والثانية: الرمح. **وحَمِئَة**: من حَمِئَ الماءُ، أي: خالطَتْه الحَمْأةُ فكَدِر، والحمْأة والحمَأ: الطين الأسود، ومنه في الآية الشريفة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر:٢٦). **وصَدِئة**: من صَدِئَ الحديدُ، أي: رَكِبَه الطَّبَع والوَسَخ. **وعُبْر الوادي وعِبْره**: شاطِئُه وناحيته، قال النابغةُ في الفُرَات: «**تَرْمي أوَاذِيُّه العِبْرَيْن بالزَّبَدِ**»، **وأواذيه**: أمواجه. **ومُصحِر**: سائرٌ في الصحراء.

وصَفَ القناةَ على لسان ولديه كما تبدو للعين؛ فهي في الظاهر لا شيء سِوى ماءٍ مِلْح يسيل بين الرمال، أو كأنها بمائها العَكِرِ رُمحٌ علاه الصدأ مُلْقًى على الرمل. ولكن يجب أن لا نأخذَ بالظواهر كما بيَّن الكاتبُ ذلك في الفِقرة التالية التي ردَّ فيها على ولديه.



انْظُرا تَرَيَا على العَبْرَين عِبرةَ الأيّام؛ حصونٌ وخيام، وجنودٌ قعودٌ وقيام؛ جيشٌ غَيْرُنا فُرسانُه وقُوَّادُه، ونحن بُعْرَانُه وعلينا أَزْوادُه، ديكٌ على غير جِدارِه، خلا له الجوُّ فصاح؛ وكلبٌ في غير دارِه، انفردَ وراءَ الدَّار بالنُّبَاح[١].

القناةُ وما أَدْراكُما ما القناةُ، حظُّ البلادِ الأَغْبَر، مِنَ التقاء الأبيضِ والأحمر، بَيْدَ أنَّها أحلامُ الأُوَل، وأمانيُّ المَمالِكِ والدُّوَل، الفراعنةُ حاوَلوها، والبطالِسةُ زاوَلوها، والقياصرة تناوَلوها، والعَرَبُ لأمرٍ ما تجاهَلوها، إلى أنْ جرَى القَدَرُ لغايتِه، وأتى إسماعيلُ بآيتِه[٢]، فانفتح البَرزخُ بعنايتِه، والْتَقَى البَحرانِ تحتَ رايتِه، في جَمْعٍ مِنَ التِّيجان لم يَشهَدْهُ إكليلُه، قد كان يُتوَّجُ فيه لو شَهِدَتْه جيوشُه وأساطيلُه. وما إسماعيلُ إلَّا قَيصرُ، لو أنَّه وُفِّق؛ والإسكندرُ، لو لم يُخفِق. تَرَكَ لكم عِزَّ الغد، وكَنْزَ الأبد، والمَنْجَمَ الأحد، والوقفَ الذي إنْ فات الوالدَ فلن يَفوتَ الولد[٣].

---

(١) **التَّنائف**: جمع تَنُوفَة، وهي المفازة أو الأرض الواسعة التي لا أنيس بها. **المجاز**: المعبر والمسلك، وهو في البيان: اللفظ المنقول من معناه الحقيقي إلى معنًى يلابسه. وفي قوله: «**وهذا المجاز حقيقة السيادة**» تورية لطيفة. **خيط الرقبة**: نخاعها، يقال: دافعَ عن خيط رقبته، أي: عن دمه.

ردَّ على ولديه، فقال: لا تأخُذَا بالظواهر، فما قيمة الكتاب بغلافِه، ولا قيمةُ الحُسَام بقِرَابه = [**قلت**: والحسام: السيف القاطع. والقِرَاب: غلاف السيف، وهو الغِمْد] = وهذه القناة الكدِرة هي خلاصة تاريخ مصرَ، ومَن استولى عليها فقد ضَمِنَ النصرَ؛ لِما لموقعها من الخطر. وقد عَنى بمَن ذكر من الجنود: جيشَ الأجنبي المحتل.

(٢) كثيرون حاوَلوا نقْضَ بَرْزخِ السويس من أيام الفراعنة، وإن كان فتحُ القناة لم يتمَّ إلا على عهد إسماعيلَ في جمع من التيجان كما مرَّ بك وصفُ الاحتفال في المقدمة.

(٣) **التقاء الأبيض والأحمر: أي**: التقاء البحر الأبيض المتوسط والبحرِ الأحمر بواسطة قناة السويس. وقد سبق المؤلف فنظم هذا المعنى شعرًا في همزيته المشهورة [قلت: انظر «الشوقيات الصحيحة» (١/ ٣٤)]، قال:

جمَعَ الزَّاخِرَينِ كُرهًا فلا كا	**نا ولا كان ذلك الالتقاء**
أحمرٌ عِندَ أبيضٍ للبرايا	**حِصَّةُ القطرِ منهما سوداء**

البرزخ: قطعة أرضٍ بين بحرين. **قيصر**: هو يوليوس قيصر الروماني الذي أحرز مجدًا عظيمًا بانتصاراته وإصلاحاته. **والإسكندر**: هو إسكندر المقدوني الملقب عند العرب بذي القرنين، وهو مؤسس مدينة الإسكندرية المنسوبة إليه، ويُعدُّ مِن أعظمِ الفاتحين. =

ماذا على هذه الرمال[1]، مِن لمَحَاتِ جلالٍ وجمال؟ ارْجِعَا القَهْقَرَى بالخيال، إلى العصر الخال، واعْرِضا في حَداثتِها الأجيال؛ تَرَيَا على هذا المكانِ وُجوهًا تتمثَّل، ورِكابًا تتنقَّل، وتَرَيَا النُّبوةَ تَتهلَّل، والآياتِ تتنزَّل، وتَرَيَا المَلَكَ[2] يترجَّل، حتى كأنكما بالزمان الأوَّل. فهاهنا وُضع للنُّبوة المهد، وابتدأ بها العهد، فأَقبَلَ صاحبُ المَقام، ومُحطِّمُ الأصنام، وبَنَّاءُ البيتِ الحرام، خليلُ ذي الجلال والإكرام. هاجرَ إلى مصرَ أكرمَ مَن هاجر، ثم انقلبَ منها بأمِّ العرب هاجر.

ومن هذه الثَّنِيَّاتِ طلَعَ يوسفُ يَرْسُفُ في القَيْد، وهو للسَّيَّارة[3] يسيرُ مِن كَيدٍ إلى كيد. قلبٌ جرحَتْه الإخْوَة، وجنبٌ قرَّحتْه النِّسوة، فيا لكَ يوسفُ مِن أُسوة؛ عِزٌّ بَعْدَ هُون، ودولةٌ بعد المنزل الدُّون، وشئونُ أقدارٍ وشُجُون، وسُهولُ حياةٍ وحُزُون، وسُجُوفُ القصور بعد السجون... إلى سجود الشَّمسِ لكَ والقمر، والكواكبِ الأُخَر.

وإلى هذا الفضاءِ خرج موسى حين زِيلَ زَوِيلُه[4]، وطلَبَهُ قَتِيلُه، وزَيَّنَ له الفِرارَ خليلُه، فحَوَتْه هذه الرمالُ فإذا الأمنُ سبيلُه، واليُمْنُ دليلُه، والسَّلامةُ زامَلَتْهُ[5] والسِّلْمُ

= [**قلت**: ذو القرنين اثنان: أحدهما هو المذكور خبرُه في القرآن المجيد، وكان رجلًا صالحًا، وكان وزيره الخَضِر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثاني هو المراد هنا، وهو المقدوني اليوناني، باني الإسكندرية، وكان كافرًا، وقد وَزَرَ له أرسطوطاليسُ الفيلسوفُ.

وكان زمانه بعد زمان الأول بأزيدَ من أَلْفَيْ عام، وكان قبل المسيح عيسى ابنِ مريمَ بنحوٍ من ثلاثمائة سنة.

ومَن جعلهما واحدًا فقد وقع في مَهْواة من الغلط...

وانظر «**البداية والنهاية**» لأبي الفداء ابن كثير -قدس الله رُوحه في الجنة- (٢/ ١٠٢-١٠٦)].

(١) أخد المؤلف يروي لولديه تاريخَ تلك البِقاع. وهو درس تاريخي جميل بليغ جمع إلى سرد الوقائع والحوادث شيئًا كثيرًا من فلسفة التاريخ وعِبَرِ الأيام.

(٢) **الملَك**: الملائكة.

(٣) **السيارة**: القافلة.

(٤) **زِيلَ زَوِيلُه أي**: زال جانبُه ذُعْرًا وفَرَقًا.

(٥) **زاملته**: رافقته. وأصل زامله: عادله على البعير في المحمل، أي: كان هو في جانب وصاحبه في آخَرَ. [قلت: لو ضبطها المحشِّي: «زامِلَتُه»؛ لكان أدخل في القَبول»].

زميلُه. ولو أَطْلَعَه الله على غَيْبِه، لَلَمَسَ النُّبوَّةَ بيْن يدِه وجَيْبِه. إلى أنْ رُفِع له المَنار، واكتَحلَ بالنُّور واقتبَسَ مِنَ النَّار، وقيل له: كُنْ مِنَ الأحرار الأحبار، وارجِعْ فسلِّطِ الحقَّ على فِرعونَ الجبار، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ أوَّلَ مَنِ اقتَحَم على الفردِ جبروتَه، وهَتَكَ على المستبِدِّ طاغوتَه، وخَطَمَ(١) المتألِّهَ وحَطَمَ عَظموتَه. ماءُ الحقِّ على لُطْفِه، ظَفِرَ بنارِ الباطل على عُنْفِه. ظهرَ العدلُ على الحَيْف، وكسرَتِ العصا السَّيْف.

وعلى هذه الأرضِ مَشَتِ السَّماءُ الطَّاهرة، والنَّيِّرَةُ الزاهرة، والآيةُ المتظاهرة، أمُّ الكلمة(٢)، وطَريدةُ الظَّلَمة، سَرَحوا في عِرْضها، فأخرجوها من أرضها، فضربَتْ في طول الأرض وعَرْضِها، يوسفُ حاديها(٣)، وجبريلُ هاديها، والقُدْسُ ناديها، والطَّهارة أرجاءُ واديها، وعلى ذراعها مِصباحُ الحكمة، وجَناحُ الرحمة، والإِصباحُ مِنَ الظُّلْمة، حتى هَبطَتْ به أكرمَ الأَدِيم، فنشأ بيْن الحكيم والعليم، وترعرع حيثُ ترعرع بالأمس الكَلِيم(٤).

فيا لَكِ مِن دار، لَعِبتْ على عَرَصاتِها الأقدار، ناديْتِ موسى، القريب، وآوَيْتِ عيسى، الغريب، نَبَوْتِ بالنَّبيّ، وحَبَوْتِ الأمنَ عيسى وهو صبيّ، عُذْرُك لا تُنْضَى إليه المَطِيّ؛ فإنَّما غضِبْتِ لابنِكِ القِبْطيّ(٥).

(١) **خطمه:** ضربه على أنفه.

(٢) السيدة مريم.

(٣) [**قلت:** يعني: يوسفَ بن يعقوبَ النجار، وكان ذا قرابة لها. وقد وُلد المسيحُ على الصحيح في الموضع الذي بنى عليه قسطنطين بيتَ لحم بعدُ. وأما ما رواه الطبري عن وهب أن المسيح ولد بمصرَ فضعيف].

(٤) [**قلت: الكليم:** هو نبي الله موسى ـ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، لُقِّب بذلك؛ لأنه كلَّم اللهَ وكلَّمه اللهُ تكليمًا.

والكلمة: لقب نبي الله عيسى ـ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم ـ؛ إذ إنه خُلق بكلمة: «**كن**» من غير أب، كما خُلق آدمُ بها من غير أب ولا أم. فعيسى خُلِق بـ«**كن**» وليس هو «**كن**»].

(٥) إشارة إلى القبطي الذي قتله موسى وغضِبَتْ له مصر، فلم تقبل فيه من عذر.

ثم انظُرا تَرَيَا إبلًا صِعَابًا، وخيلًا عِرَابًا[١]، وتَرَيَا الرُّعاةَ[٢] انقَضُّوا على الوادي ذئابًا، فأخافوا القُرى الآمِنَة، وأخرجوا مِن مِصرَ الفراعِنة، واستبَدُّوا بالمُلْكِ فيها آوِنة.

وتَرَيَا الوحوشَ الضارية، والجوارحَ الكاسِرة، يقودُها شرُّ الأكاسِرة[٣]، مَلأَتْ هذه الفِجاج[٤]، وكأنها حَرَجاتُ[٥] السَّاج، أو حركاتُ الأمواج، ثم تدفَّقتْ تكتَسِحُ الديار، باغيةَ السَّيف طاغيةَ النَّار، تَدُكُّ الهياكلَ والمعاقل، وتَهْتِكُ العقائِدَ والعقائِل.

وتَرَيَا الإسكندرَ الكريم، قد لَمَعَ كالصارم من هذا الصريم[٦]، يَحمِلُ الحمَلاتِ النَّجائب، ويَفتَحُ بالكُتبِ وبالكتائب.

---

(١) **العراب**: الكرائم.

(٢) الهكسوس أو الملوك الرعاة.

(٣) هو قَمْبيزُ أحد ملوك الفُرس، حكم من (٥٢٩إلى٥٢٢) قبل المسيح، وهو ابن قورش. فتح مصر واستبدَّ بأهلها. وقد ذكره المؤلف في قصيدة المؤتمر، فقال:

لا رعـاك الـتـاريـخُ يـا يـومَ قـمـبـيـزَ ولا طَـنْـطَـنَـتْ بـك الأنـبـاءُ

دارت الـدائـرات فـيـك ونـالـت هـذه الأمـةَ الـيـدُ الـعَـسْـراءُ

[قلت: هي قصيدة «**كبار الحوادث في وادي النيل**» التي سلفت الإشارة إليها.

هذا، وقد جاء في الطبعات المتأخرة من «**الشوقيات**» تعليقًا على هذين البيتين، ولعله بقلم الدكتور محمد حسين هيكل -كما قال أمير البيان شكيب أرسلان في بعض كتبه-:

قمبيز: أحد ملوك الفرس، استولى على مصر سنة ٥٢٥ ق.م، وسلك في المصريين مسلك العسف والظلم، وخرب المعابد والهياكل، وقتل العجلَ أَبيس (الذي كان يأله المصريون)، وغير ذلك.

ويَومُ قمبيزَ: هو اليوم الذي انتصرت فيه جيوشه على جيوش أبسمتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين في الفرما ومنف، والذي أخذ فيه الملك أسيرًا فأُذيق من الذل ...

وطنطن: صوَّت.

ذلك، وقد ذكر شوقي قمبيزَ مرة أخرى في قصيدته « **أبو الهول**»، فقال:

ورَاعَـكَ مـا راعَ مِـن خَـيْـلِ قَمْبيـزَ، تـرمـي سَـنـابِـكُـهـا بـالـشَّـرَر

وثَم كلام طويلٌ في التعليق على هذا البيت عن قمبيزَ وفِعَاله، وجاء في إِثْره حديث عن الإسكندر المقدوني وفتوحاته، فانظره إن شئت.

هذا، وإن لأحمد شوقي رواية تمثيليةً باسم «**قمبيز**»، تشتمل على فصول ثلاثة.

وللنقادة العنيف إبراهيم عبد القادر المازني مقالاتٌ في نقدها، نشرتها جريدة «السياسة» في الشهر الأخير من سنة ١٩٣١م. وكذا للعقاد فيها كلام. وراجع «أبي شوقي» (ص١٦٠-١٦١)].

(٤) **مفردها فَجّ**: وهو الطريق الواسع بين جبلين.

(٥) **حرَجات**: جمع حَرَجَة، وهي مجتمع الشجر. **والساج**: شجر يعظم جدًّا وخشبه أسود.

(٦) **الصارم**: السيف القاطع، **والصريم**: الرمل.

وتَرَيَا ابنَ العاصِ والصَّحابة، مَرُّوا مِن هذه الأرجاء مَرَّ السَّحابة، يَفتحون للحقّ، ويَفتِكونَ بالرِّقّ، حتَّى أَخْلَوُا القصورَ مِنَ القياصِرة، وأراحُوا مِصرَ الصَّابرة، مِن صَلَفِ الجبابرة.

وتَرَيَا صلاحَ الدِّينِ يَخْفَى كالبدر ويَبْدُو، ويَروحُ كالغيث ويَغْدو. بُعوثٌ بلا عدد، ومَدَدٌ إِثرَ مَدَد، وذَخائرُ وعُدَد، وبُشرَى كلَّ يوم بفُتوحٍ جُدُد.

وتَرَيَا نابليونَ قد رَكِبَ طَيْشَه، وأَركَبَ الغَرَرَ[1] جيشَه.

وتَرَيَا إبراهيمَ بنَ عليٍّ مشهورَ الجُراز[2]، مَوفورَ الجِهاز، مَلَكَ سوريَا وضَبَطَ الحِجاز[3].

وتَرَيَا إسماعيلَ بَعَثَ الحاشِرين، وحَشَدَ الحافِرين، وقَرَّبَ المسافةَ للمسافرين. غَيَّرَ وجْهَ السَّفر، فقيل: بلَغَ غايةَ الظَّفَر، وقيل: وقع الحافرُ فيما حفَر.

ثم انظُرَا اليومَ ترَيَا القناةَ في يد القَومِ إنْ أَمِنوا رَكَزوها[4]، وإنْ خافوا هَزُّوها.



(١) الخطر.

(٢) السيف.

(٣) [**قلت**: إنما تأتَّى له ذلك بركوب الأُحموقة، والغدر بالملوك والسُّوقة، فوقع في هُوَّة سحيقة، وهو عن هذا غافل غير حافل].

(٤) **ركز الرمح**: غرسه في الأرض. وفي **القناة** هنا تورية؛ إذْ تحتمل معنى الرمح وقناة السويس.

الذِّكْـــرَى (١)

«هذه قصيدة من الشعر المنثور، تغزَّل فيها المؤلِّفُ بالحريَّة، وأهداها إلى رُوح صديقه المرحوم مصطفى كامل باشا؛ بمناسبة ذكرى وفاته»[(١)]:

قُلْ: لا أَعرِفُ الرِّق، وتَقيَّدْ بالواجب وتقيَّدْ بالحقّ.

الحرية وما هِيَه؟ (الحُمَيراء)[(٢)] الغاليه، فتنةُ القرونِ الخاليه، وطَلِبَةُ النُّفوسِ العاليه. غِذاءُ الطبائع، ومادَّةُ الشرائع، وأُمُّ الوَسائلِ والذَّرائع. بِنتُ العِلْمِ إذا عَمّ، والخُلُقِ إذا

(١) [**قلت**: لأمير الشعراء قصيدة من الشعر المنظوم شهيرةٌ، نظَمها بمناسبة الذكرى السابعةَ عشرةَ لوفاة مصطفى كامل باشا، سماها «**شهيد الحق**»، وأودعها ديوانه، مطلعها:

إِلامَ الخُـلْـفُ بيـنكُـمُ؟ إلاما؟ ... وهـذي الضَّجَّـةُ الكُـبرى علاما؟

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدةٌ أخرى، مفتتحها:

المشرقـان عليـك ينتحبـان ... قاصيهـمـا في مأتم والداني

وهذه الأخيرة قد انتقد بعضَ أبياتها على شوقي: العقادُ في الجزء الثاني من «**الديوان**» (ص١٨٣-٢٣٣) ط. الهيئة المصرية العامة، والرافعيُّ في مقالة «**شوقي**» التي نشرتها «**المقتطف**» في نوفمبر سنة ١٩٣٢م، ثم نشرها العريان مع ما نشر في الجزء الثالث من «**وحي القلم**».

وقصَّد ثالثةً بعنوان «**ذكرى مصطفى كامل**»، تراها في الجزء الثالث من «**الشوقيات**».

ذلك، وقد ذكر الأستاذ أحمد عبد الوهاب أبو العز السكرتيرُ الخاص لأحمد شوقي في كتابه «**اثنا عشر عامًا في صحبة أمير الشعراء**» (ص٥٥) ط. الهيئة، أنه سأل أحمد شوقي ذات مرة عن مصطفى باشا كامل، فقال: «كان كله قلبًا».

وفي مرة أخرى قال: «كان شعلة من الوطنية» اهـ.

هذا، وإن من نافلة القول أن نذكر أن الكلمة المشهورة السائرة في الناس: «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة» قد أبدع أوَّلَها مصطفى كامل، وأعانه على شطرها الثاني أحمد شوقي، وكان حاضرًا معه وقت اختياره شعارًا له. انظر «أبي شوقي» (ص١٣٣-١٣٥)].

(٢) **الحُمَيراء**: يريد أنها حمراءُ كالدم، وصغَّرها؛ للتعظيم. وقد تكون إشارةً إلى الرُّوح التي يُعبِّرون عنها بسرَيان الدَّمِ في الجسم.

تمّ، ورَبِيبةُ الصبرِ الجميلِ والعملِ الجَمِّ. الجهلُ يَئِدُها(١)، والضَّغائنُ تُفْسِدُها، والفُرقةُ تُبْعِدُها. تكبيرةُ الوُجود، في أُذُنِ المولود؛ وتحيَّةُ الدُّنيا له إذا وَصَل، وصَيْحةُ الحياةِ به إذا نَصَل(٢). هاتِفٌ مِنَ السَّماءِ يقولُ له: يا ابنَ آدَم، حَسْبُكَ مِنَ الأسماءِ عبدُ الله وسيِّدُ العالَم(٣). وهي القابلةُ الَّتي تَستقبِلُه، ثمَّ تَسُرُّهُ(٤) وتُسَرْبِلُه(٥). وهي المَهْدُ والتَّمِيمة(٦)، والمُرضِعُ الكريمة، المُنْجِبةُ (كحليمة)(٧). ألبانُها حياةْ، وأحضانُها جنَّاتْ، وأنفاسُها طيِّباتْ. العزيزُ مَن وُلِدَ بيْن سَحْرِها(٨) ونَحْرِها(٩)، وتَعلَّقَ بصَدْرِها، ولَعِبَ على كَتِفِها وحِجْرِها، وتَرَعرَعَ بيْن خِدْرِها وسِتْرِها. ضَجيعةُ موسى في التَّابُوت(١٠)، وجارَتُه في دار

(١) يَئِدُها أي: يدفنها حيَّةً.

(٢) نَصَلَ السهمُ: خرج نصْلُه، والمراد: خروج الولد من بطن أمه كخروج السيف من غِمْده.

(٣) عبد الله: معناه أن الإنسان وهو في الدنيا لا يكون عبدًا إلا لله، وهو سيد العالم المنتفِعُ بكل شيء فيه.

(٤) تَسُرُّه: تقطع سُرَّه، والسُّر: ما تقطعه القابلة من سرة الصبي. ولا تَقُلْ: سُرَّته؛ لأن السرة لا تُقطع، وإنما هي الموضع الذي قُطِع منه السُّر.

(٥) تُسَرْبِلُه: تُلْبِسُه السِّربال، وهو القميص.

(٦) التميمة: عُوذَة تُعلَّق على الإنسان. [قلت: قد ورد الشرع بالمنع منها، والنهي عنها، فتبصر].

(٧) حليمة: هي مرضع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي من قبيلة بني سعد.

(٨) السَّحْر: الرئة، والمراد: ما فوقها.

(٩) النَّحْر: موضع القِلادة من الصدر.

(١٠) حكاية التابوت أن المنجِّمِينَ أَخبروا فرعونَ مصَر أن مولودًا من بني إسرائيلَ قد أَظَلَّه زمانُه الذي يُولَد فيه يَسْلُبُه مُلْكَه ويُخرِجُه من أرضه، ويُبدِّل دينه، فأمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان. ولما قيل له: أفنيتَ الناس، وقطعت النسل، وهم خَوَلك وعُمَّالُك! أمر أن يُقتل الغلمان عامًا ويُستحيوا عامًا، فوُلد هارونُ في السنة التي يُستحيا فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون، فحزِنَتْ أمه، فأوحى الله إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص:٧)، وهو النِّيل ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٧). فلما وضعَتْه أرضعته، ثم دعت نجارًا فجعل له تابوتًا وجعلته فيه، وألقته في اليم، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجارٍ عند بيت فرعونَ، فخرج جواري آسية امرأته يغتسلن، فوجدن التابوتَ، فأدخلْنَه إلى آسيةَ، فأحبَّتْه، وحالت بينه وبين الذبح. فلما بلغ أَشُدَّه وأصبح في المدينة خائفًا يترقَّبُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص:٢١-٢٢)، ثم كانت رسالته. =

الطاغوت[(١)]. والعصا[(٢)] التي تَوكَّأَ عليها، والنَّارُ التي عَشَا إليها[(٣)]. جِبلَّةُ المسيح، السَّيِّدِ السميح؛ وإنجيلُه، الَّذي حارَبَه جيلُه[(٤)]؛ وسَبيلُه، الَّذي جانَبَهُ قَبيلُه. طِينةُ[(٥)] محمَّدٍ عن نفْسه، عن قَومِه، عن أَمْسِه، عن يَومِه. أنسابٌ عالية، وأحسابٌ زاكية، وملوكٌ بادية، لم يَدِنْهم طاغية[(٦)]. وهي رُوحُ بَيانِه، ومُنحدَرُ السُّوَرِ على لسانِه.

الحرِّية: عَقْدُ المِلك، وعَهْدُ المَلْك، وسُكان الفلك. يدُ القلم، على الأُمم. ومِنحة الفِكْر، ونَفحةُ الشِّعر، وقصيدةُ الدَّهر. لا يُسْتَعظَمُ فيها قُربان، ولو كان الخليفةَ عثمانَ بنَ عفَّان. جنينٌ يحمَلُ به في أيام المِحْنة، وتحتَ أَفياءِ[(٧)] الفِتنة، وحينَ البَغْيُ سيرةُ السَّامَّة[(٨)]، والعُدوانُ وَتيرةُ العامَّة. وعِندَ تناهي غفلةِ السَّواد، وتَفَاقُمِ عَبَثِ القُوَّاد. وبيْن الدَّمِ المَطْلول، والسَّيفِ المَسْلول، والنَّظمِ المَحْلول. وكذلك كان الرُّسُلُ يُولَدون عِندَ

=فالحرية التي اضطجعت مع موسى في التابوت، وجاورته في دار الطاغوت، هي التي اعتمد عليها في إنقاذ قومه من ظلم فرعون.

(١) **الطاغوت**: الكفر.

(٢) **العصا**: هي عصا موسى، وهي معجزته التي كانت إذا ألقاها انقلبت حيةً تسعى، وأراد أن يثبت لفرعونِ مصرَ أنه مرسَل من عند الله لتحرير أمته بني إسرائيل من الرق والعبودية. فعصا موسى هي عصا الحرية؛ لأن الله حرر أمته على يده.

[**قلت**: قد ينفك هذا الكلام وسابقُه ولاحقه عن الغميزة إذا ما فُهم في ضوء قول المؤلف فيما سبق: «**حسْبك من الأسماء عبد الله وسيد العالم**». وفي معناه قولُ رِبْعِي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرُستمَ قائد الفرس، وقد سأله يوم القادسية: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنُخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام». ونحو هذا قال المغيرة بن شعبة، وحذيفة بن مِحْصَن، وجماعةٌ لرستمَ أيضًا»].

(٣) **عشاها**: قصدها ليلًا يوم سار بأهله فآنَسَ من جانب الطور نارًا، فكانت رسالته بذلك الوادي المقدس إلى فرعونَ ليُنقِذَ بني إسرائيلَ من رِقِّ الفراعنة إلى بُحْبُوحة الحرية.

(٤) **جيله**: قومه، وقد أَبَوْا أن يتَّبعوه إلا قليلًا منهم وهُمُ الحَوارِيُّون.

(٥) **طينة محمد عن نفسه** ... إلخ، أي: إن محمدًا خُلق من الحرية، وقبل أن يُخلق كان سارحًا في فضائها، ولَمَّا بُعث محمد دعا الناسَ جميعًا إلى الحرية.

(٦) [أي: لم يَملِكْهم ويُذِلَّهم. يقال: دانَه؛ إذا مَلَكَه وأخضعه]. (و)

(٧) **الأفياء**: هي الظِّلال.

(٨) **السَّامَّة**: الخاصَّة.

عُمومِ الجَهالة، ويُبعَثون حين طُمُومِ الضَّلالة. فإذا كَمَلَتْ مُدَّتُه، وطَلَعَتْ غُرَّتُه، وسطَعَتْ أَسِرَّتُه، وصَحَّتْ في المَهدِ إمْرَتُه - بُدِّلَتِ الحالُ غيرَ الحال، وجاءَ رِجالٌ بعدَ الرِّجال. دينٌ يَنفسِحُ للصَّادقِ والمنافِق، وسُوقٌ يَتَّسِعُ للكاسِدِ والنَّافِق[١]. مَولودٌ حَمْلُه قُرون، ووَضْعُه سِنُون، وحَداثتُه أشغالٌ وشُؤون، وأهوالٌ وشُجُون. فرحِمَ اللهُ كلَّ مَن وطَّأَ ومَهَّد، وهَيَّأَ وتَعهَّد، ثم استُشهِدَ قَبْلَ أن يَشهد.

إذا أَحرزَتِ الأُممُ الحرِّيَّةَ أَتَتِ السِّيادةُ مِن نفْسِها، وسَعَتِ الإمارةُ على رأسها، وبُنِيَتِ الحضارةُ مِن أُسِّها. فهي الآمِرُ الوازِع، القليلُ المُنازِع، النَّبيلُ المَشارِبِ والمَنازِع. الَّذي لا يَتَّخِذُ شِيعة، ولا صَنيعة، ولا يَزْدَهي بخديعة. خازِنٌ ساهِر، وحاسِبٌ ماهِر، دانِقُ[٢] الجماعةِ بذِمَّةٍ منه وأمان، ودِرْهَمُهُم في حِرْزِه دِرْهَمان.

(فيا ليلى)[٣] ماذا مِن أَتْراب، وارَيْتِ التُّراب؟ وأَخْدان، أَسلَمْتِ للدِّيدان؟ عُمَّالٌ للحقِّ عُمَّار، كانوا الشُّموسَ والأَقمار، فأصبحوا على أَفواهِ الرُّكَّابِ والسُّمَّار. وأين قَيْسُكِ المُعْوِل؟ ومَجنونُكِ الأوَّل؟ حائطُ الحقِّ الأَطْوَل؛ وفارسُ الحقيقةِ الأَجْوَل[٤]؟

أينَ مصطفى؛ زَيْنُ الشَّباب، ورَيحانُ الأحباب، وأوَّلُ مَن دَفَعَ الباب، وأَبرزَ النَّاب، وزَأَرَ دُونَ الغاب؟.



(١) **النافق**: الرائج.

(٢) [**الدَّانق** -بفتح النون وكسرها-: سُدُسُ الدِّرهم]. (و)

(٣) يناجي الحرية باسم (**ليلى**)، ويسألها عن (**قَيْسِها**)، و(**مجنونها**).

(٤) [**قلتُ**: **المعول**: الحريص. **والأجول**: أفعل من الجوَلان].

الشَّمْــــس

سَلِ الشَّمسَ مَن رَفَعَها نارًا، ونَصَبَها[١] مَنارًا، وضَرَبَها دينارًا[٢]؟ ومَن عَلَّقَها في الجَوِّ ساعة[٣]، يَدِبُّ عَقْرَباها إلى يوم الساعة[٤]؟ ومَنِ الَّذي آتاها مِعْراجَها[٥]، وهَداها أَدْراجَها[٦]، وأَحَلَّها أبراجَها، ونَقَّلَ في سماءِ الدُّنيا سِراجَها؟ ومَنِ الَّذي وَكَلَها بهذه الكُرَة، وشَغَلَها بهذه الدَّسْكَرَة[٧]، حتَّى اتَّخَذَتْها مَجَرَّ ذَيْلِها[٨]، وتصرَّفَتْ بنَهارِها ولَيلِها؟ تَنْهَضُ في السَّماءِ مُسْتَمْلَحة، وتمشي على الأرض مُصْلِحة، وتَغْدُو مُنْجِحة[٩]، وتَروحُ مُرْجِحة[١٠].

كلُّ إيَاة[١١]، حياةٌ أو ائتِنافُ[١٢] حياة؛ وكلُّ شُعاع، صانِعُ صَنَاع؛ وكلُّ رائِد، مالٌ فائِد[١٣]، وخيرٌ زائِد.

---

(١) **نصبها**: أقامها.

(٢) **أي**: كالدينار صُفْرةً واستِدارة.

(٣) **أي**: كالساعة التي يُعرَف بها الوقتُ.

(٤) **عَقْرَبَا الشَّمس**: هما الليل والنهار؛ تشبيهًا لهما بعقربَيِ الساعة.

(٥) **المعراج**: السُّلَّم.

(٦) **جمع درَج**: وهو الطريق.

(٧) **الدسكرة**: القرية العظيمة، والمراد بها هنا: الدنيا.

(٨) **المراد بالذيل**: الأشعة. **أي**: إنها اتخذتِ الدنيا مكانًا تجر عليه أشعتَها.

(٩) **غُدُوُّ الشمس**: إشراقُها.

(١٠) **الرَّوَاح**: الغروب. ومُرجِحة: **أي**: تُجزِل العطاء.

(١١) **الإياة والشعاع والرائد**: كلُّها بمعنًى واحد.

(١٢) **ائتِناف أي**: تجديد.

(١٣) **المال الفائد**: الثابت على الزيادة والربح.

هيَ المِصباحُ الأَنْوَر، والمِغزَلُ الأَدْوَر (١)، والمِرْجَلُ الأَزْهَر (٢)، والصَّبَّاغُ الأَمْهَر (٣)، والرَّاوُوقُ (٤) الأَطهَر، والطَّبيبُ الأَقدَرُ الأَشهَر.

الزَّمانُ هي سببُ حُصولِه(٥)، ومُنْشَعَبُ(٦) فُروعِه وأُصولِه، وكِتابُه بأجزائِه وفُصولِه. وُلِدَ على ظَهرِها، ولَعِبَ على حجْرِها، وشابَ في طاعتِها وبرِّها. لولاها ما اتَّسَقَتْ(٧) أيَّامُه، ولا انتَظمَتْ شهورُه وأَعوامُه، ولا اختَلَفَ نورُه وظَلامُه.

ذَهَبُ الأَصيلِ مِن مَناجِمِها(٨)، والشَّفَقُ يسيلُ مِن مَحاجِمِها(٩)، تحطَّمَتِ القرونُ على قرْنِها(١٠)، ولم يَعْلُ تَطاوُلُ السِّنينَ بِسِنِّها(١١)، ولم يَمْحُ التَّقادُمُ(١٢) لَمحةَ حُسْنِها. أَتَتْ دُونَها الأَيَّامُ وهي كَعاب(١٣)، في غَرْب الشَّباب(١٤). تُصبِحُ تَبرُزُ مِن حِجاب، وتُمْسِي

---

(١) **الأَدْوَر**: شديد الدَّوَران. وتشبيه الشمس بالمِغزل؛ لأنها تَفْتِلُ الأشعةَ وتُرسِلُها بسرعة.

(٢) **المِرْجل**: القِدْر. **والأزهر**: النَّيِّر المُشرق. وشبَّه الشمس بالمرجل؛ بجامع الإنضاج في كلٍّ.

(٣) تَصبُغُ النَّباتَ فتجعله أخضرَ، وتحبو الحيوانَ ألوانَه المختلفة، ثم تعطي بأشعتها كلَّ شيء لونًا.

(٤) **الرَّاووق**: المِصْفاة. والغرض أنها مطهِّرة.

(٥) الليل والنهار والفصول الأربعة هي مظهر الزمان، ولولا الشمسُ ما كانت ولا كان الزمان.

(٦) **المنشعب**: المفترق.

(٧) **اتسقت**: أي: انتظمت.

(٨) **المنْجَم**: المعدِن. = [**قلت**: أي: مكان وجود الذهب والفضة ونحوِهما في الأرض] = والمؤلف يشبه الأصيلَ بالذهب؛ بجامع الصفرة في كلٍّ.

(٩) **المَحْجَم**: مكان الحجامة، وهي أخذ الدم من الجسم. والمؤلف يشبه الشفق بالنسبة إلى الشمس بالدم بالنسبة إلى شخص يحتجم؛ بجامع الحمرة في كلٍّ.

(١٠) **قرْن الشمس**: أعلاها، وقيل: أوَّلُ ما يبدو من أشعتها.

(١١) **السن**: العمر. والمعنى: أن طول الزمن لم يؤثِّر فيها شيئًا.

(١٢) **التقادم**: القِدَم.

(١٣) **كَعَبَتِ الجاريةُ**: نَهَدَ ثَدْيُها، فهي كَعَابٌ.

(١٤) **غَرْبُ الشباب**: حِدَّته ونشاطُه.

تَتَوارى بحِجاب. طالما ردَّتِ الغِرْبانَ حَمائم(١)، ونَسَجَتِ الثَّلاثَ العمائم(٢). وغزلَتِ الأَكفان، لحَيٍّ فانٍ، وطلَعَتْ على عَزَبٍ(٣) وغرَبَتْ على بانٍ(٤).

قامَتْ على غير قَدَم، حتى طال عليها القِدَم، وقيل: ما لهذه عَدَم.

كَلَّا، لتَخِرَّنَّ(٥) عمادًا، ولتَذْهَبَنَّ رمادًا، ولَيَبْعَثَنَّ اللهُ جمادًا(٦).



(١) أي: تُحيل الشُّبَّانَ شِيبًا.
(٢) العمائم الثلاث: كناية عن شعر الشباب الأسود، واختلاط السواد بالبياض في الأشمط، والبياض في الشيوخ.
(٣) العَزَب: الذي لم يتزوج.
(٤) الباني: المتزوج.
(٥) لتَخِرَّنَّ: لتَسقُطَنَّ.
(٦) أي: يبعث على إثرها من العظام أحياء. ويشير بهذا إلى أن الشمس تبقى ولا تفنى إلا قُبيل الساعة، حتى إذا ما فَنِيَتْ نُشِرَتِ الخلائقُ بعد ذلك؛ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٦٨).

المَــــوْت

راكبَ الأعوادِ[١] إلى أين؟ يا بُعْدَ غايةِ البَين[٢]، ويا قُرْبَ الميلادِ مِنَ الحَين[٣]! وَيْحَ قَوْمِك، هل انتَبَهوا مِن نَوْمِك[٤]، ولَمَسوا عِبْرَةَ الدَّهرِ بيَوْمِك[٥]؟ حَمَلوكَ على حَدْباء[٦]، يَقعُدُ الأبناءُ منها مَقْعَدَ الآباء. هي أَعْدَلُ - إذْ تَضَعُ[٧] - مِن حَوَّاء، تُلْقِي حَمْلَها فإذا المَلِكُ والسُّوقَةُ سَواء. حقيبةُ المَنيَّةِ[٨] كلَّ يومٍ في رِكاب، مِن مناكِبَ[٩] ورِقاب، تَحمِلُ الشِّيبَ والشَّباب، إلى رَحَى البِلَى في اليَبَاب[١٠]، فيَدورُ عليهمُ الدُّولاب[١١]، فإذا هُم حَصًى وتُراب. ومِن عَجَبٍ يُعَدِّلونَها بك إلى السَّبيل[١٢]، وما هيَ -لَعَمْرُ أبيكَ- إلَّا الدَّليل. في مَوكِبٍ غَيرِ ذي صَوْت، أَضْفَى[١٣] عليه جَلالَهُ المَوْت. أنت فيه جِدٌّ في لَعِب، وصِدْقٌ في كَذِب[١٤]. لكَ فيه عُلُوُّ المَتبوعِ في التَّبَع[١٥]، واللِّواءِ في الخميس[١٦] والخطيبِ

(١) **الأعواد**: كناية عن النعش، والخطاب للميت.
(٢) **البَيْن**: الفِرَاق. وهذه الجملة إشارة إلى بُعد الزمن ما بين الموت والنُّشور.
(٣) **الحَيْن**: الموت. وهنا إشارة إلى قِصَر الحياة.
(٤) **أي**: اتعظوا به؟
(٥) **العِبْرة**: العِظَة. **ويومك**: أي يوم موتك.
(٦) نعش.
(٧) **أي**: تلد، **والمراد**: إذ تُسْلِمُ الأمواتَ إلى القبور.
(٨) كناية عن النعش.
(٩) **المناكب**: الأكتاف.
(١٠) **اليباب**: القَفْر والخراب. والمراد **برحى البِلَى** هنا: القبر؛ إذْ فيه يتم الفناء.
(١١) **الدولاب**: الآلة الدائرة، والمراد بها هنا: دولاب الفناء.
(١٢) يسيِّرونها كيفما شاؤوا مع أنها هي التي تَقودهم إلى طريق الحق.
(١٣) أفاض.
(١٤) الآخرة جِدٌّ، والدُّنيا لَعِبٌ، وهي صِدْق، والدُّنيا كَذِبٌ؛ فهو بينهم ميت في وسط أحياء، فوصَفَه بأوصافِ الآخرة كما وصفهم بأوصاف الدنيا.
(١٥) التابعين.
(١٦) **اللواء**: العَلَم. **والخميس**: الجيش.

في الجُمَع. بَيْدَ أن ذلك لا يَمْنَعُكَ مِنَ الأرض[١]، ولا يَنْفَعُك يَوْمَ العَرْض[٢]. لسْتَ واللهِ صاحِبَ الآخرة[٣]، وإنْ كنتَ صاحبَ الجِنازةِ الفاخرة، حتى تُشَيَّعَ، بيتيمٍ بَعْدَك مُضَيَّع، أو بائسٍ، مِن ورائِكَ يائس، أو وطَنٍ يَبكيكَ عقلاؤُه، ويَضِجُّ عليك فُضلاؤُه، ويَمشي بنُورِكَ أبناؤُه، ويُضيءُ حُفْرَتَكَ ثَناؤُه.

انظر ـ رحِمك اللهُ ـ هل ترى غيرَ باكٍ كضاحِك المُزْن[٤]، ليس وراءَ دَمْعِه حُزْن، أو وارثٍ مشغولٍ بما مَلَك، أو فُضُوليٍّ يَسألُ: كمْ تَرَك؟!

زُخْرُفُ جنازة، ويَنفَضُّ دُونَ المَفازة[٥]. وضَجَّةُ الخروجِ مِنَ الدُّنيا وزُورِها، وآخِرُ عَهْدِكَ بباطِلِ الحياةِ وغُرورِها.

ولو أَطْلَلْتَ على فانٍ طالما حَمَلَك[٦]، وباطلٍ بالأمس شَغَلَك، وقليلِ مَتاعٍ قَتَلَكَ، ثمَّ لَمْ يَبْقَ لك - لم تَرَ غيرَ حُلْمٍ بُتر[٧]، ومَلْعَبٍ سُتِر، وماءٍ عُبر[٨]، وظِلٍّ هُجِر، ومالٍ خُسِر، ووارثٍ مُنْشَمِر[٩].

يسيرون بك إلى المُنفَرَق[١٠]، وسواءِ الطُّرُق، ويَأْخُذون بك ناحيةَ الحقّ، وسبيلَ الخَلْق، وقَصَبةَ السَّبْق.

(١) **الأرض**: القبر. (٢) القيامة.

(٣) **أي**: صاحب الجزاء الحسن فيها. والمراد بهذه الجملة وما يليها: أنك لن تنال ما ترجوه من نعيم الله حتى تَشهَدَ لك دموعُ اليتامى مِن بَعدِك، وبكاءُ البائسينَ على قبرك، وعَبَراتُ الفضلاء يوم مصرعك، وأحزانُ الوطن لِفراقك.

(٤) **المُزْن**: السحاب الغزير الماء. **والغرض**: أنك لا تجد حولك إلَّا دمعًا كذبًا، وحزنًا كلُّه رياء.

(٥) **المفازة**: الفلاة المهلِكة؛ لعدم وجود الماء. **والمراد** بها هنا: موضع المقابر.
يقول: كل ما خرجْتَ به من الدنيا موكبٌ مزيَّنٌ يَنفضُّ قبل أن يواروك التراب.

(٦) جواب «**لو**» قوله: «**لم تَرَ غيرَ حُلْمٍ بُترَ**».

(٧) قُطِع.

(٨) **عُبِر الماء**: قُطع من شاطئه إلى شاطئه.

(٩) **انْشَمَرَ**: مَرَّ جادًّا أو مختالًا.

(١٠) مكان الفصل بين الدنيا والآخرة، والمراد بهذا وما بعده: أوصاف للمقابر عامة. أمَّا وصْفُ القبر خاصَّةً فسيأتيك بعد قليل.

هُوَّةُ البِلَى، وغَمْرَةُ الفَلا[١]، والميعاد، ومدينةُ عاد، وعَرَصاتُ المَعاد[٢]، والبلدُ الَّذي ابْيَضَّتْ فيه الأكباد[٣]، وخُلِّفَتْ بظاهِره الأحقاد، وصَحَا الفؤاد، عنِ الأموال والأولاد، كلُّ مكانٍ فيه مَضْجَعٌ وكلُّ زمانٍ فيه رُقاد[٤].

ثم إذا أنتَ ببيت[٥]، لا يَنزِلُه إلَّا مَيْت، اختَطَّهُ الباطلُ وبَناه؛ لنُزولِ الحقِّ وسُكْناه[٦].

كلُّ حجَرٍ فيه مِن جِدار، مُشاعٌ[٧] بيْن الدَّارِ والدَّار.

حتَّى إذا أَطْرَقَ[٨] الجَمْع، وأُطْلِقَ الدَّمْع، وفَرِقَ البَصَرُ والسَّمْع[٩] - قُذِفَ ما في السَّرير[١٠]، فتلقَّفَهُ الحَفِير[١١]، ووُكِلْتَ لمُنكَرٍ ونكِير، لا بل لرحمة المَلِكِ القدير.

فيا عَبْدَ المال، أضَرَّكَ أنَّكَ عُتِقْتَ[١٢]؟! ويا أَسيرَ الآمال، أمَا سَرَّكَ أنَّكَ أُطْلِقْتَ[١٣]؟ ويا كثيرَ التَّحوُّلِ والتَّقَلُّب، قَلِّبْ إنِ استَطَعْتَ جَنْبَيْك! ويا مُدِيمَ التَّطَلُّعِ والتَّطلُّب، اطلُبْ مِنَ البِلَى نورَ عَيْنَيْك! ويا مُزَحْزِحَ الصُّمِّ[١٤] الصِّلاب، زَحْزِحْ عن رأسِكَ هذه الظُّلْمة! ويا فاتِحَ المَغالِقِ الصِّعاب، افتَحْ لك اليومَ ثُلْمَة[١٥].

---

(١) **الفَلا**: الأرض الفضاء الموحِشة. **والغَمرة**: المزدحم. **والمراد**: أن المقابر هُوَّةٌ يكون فيها الفناء، وأرض يزدحم فيها الأموات.

(٢) **العرَصات**: الفضاء بين الدُّور. **والمعاد**: موضع العَود والنُّشور.

(٣) **سواد الكبد**: كناية عن الحقد والحسد، **وبياضه**: طُهْرُه مِن كلِّ هذه الأرجاس.

(٤) يقضي الميت مدته فيه كلَّها في رقاد طويل.

(٥) القبر.

(٦) الإنسان الموجود في الدنيا دارِ الباطل والغرور يَحفِر القبر ليَسْكُنَه الميت الذاهب إلى دار الحق والرشاد.

(٧) **مشاع**: مشترَك.

(٨) **أطرق برأسه**: أماله إلى الأرض حزنًا.

(٩) **فرِق**: فزِع وخاف.

(١٠) **السرير**: النعش.

(١١) **الحفير**: القبر.

(١٢) الاستفهام هنا إنكاري.

(١٣) الاستفهام هنا تقريري؛ يقرِّر ما بعده.

(١٤) **الصُّم**: الحجارة الصَّمَّاء.

(١٥) ثُلمة: فتحة. وكل ما تقدَّم الغرضُ منه إظهارُ نهاية عجز الإنسان بعد الموت، وكأنما يقول: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ (الحج: ٧٣).



كأنِّي واللهِ بالدَّهر وقدْ خلا، وبالمحزون وقد سَلا(١)، وكأنِّي بك وقد فَرَغَ منك الثَّرى، وقامَتْ عنك الرَّحَى(٢)، فإذا أنت عِظَامٌ، كما اخْتُـرِطَ العُنْقُود(٣)، ثمَّ إذا أنت رَغَامٌ(٤)، جَفَّ الماءُ وذهَبَ العُود.



(١) **سلا: أي**: تعزَّى وترك.

(٢) **أي**: لم يبقَ منك ما يَصلُح للطحن؛ كناية عن تمام الفناء.

(٣) **اختَرَط الرجُلُ العُنقودَ**: وضعه في فيه وأخرج عُودَه عاريًا.

(٤) **الرَّغام**: التراب.

دُعاءُ الصَّلاةِ العامَّة

«في سنة ١٩١٩ هبَّتِ البلادُ في ثورة عامَّةٍ تَطلُبُ استقلالَها المغصوب، وأوفدت لذلك وفدًا؛ ليرفعَ هذا الصوتَ في مؤتمر (فرساي)، فأُوصِد البابُ في وجْهِه، واضْطُرَّ إلى أن يلبث في فرنسا سنةً كاملةً بيْن تعبٍ ناصب، وجهادٍ طويل. ثم تلقَّى دعوة إلى المفاوضة مع الإنكليز في عاصمة بلادهم[١]. يومئذ وضع المؤلفُ هذا الدُّعاءَ البليغ، فأجمع النَّاسُ من كل دين على أن يَتوسَّلوا إلى الله أن يُعِزَّ به نوَّابَ البلاد. وعَقِبَ صَلاةِ الجُمُعةِ من يوم ١٧ رمضان سنةَ ١٣٣٨ (٤ يونيو سنة ١٩٢٠) ارتفعت أصواتُ المسلمينَ من كل مسجد في كل بلد من بلاد القُطرِ تَهتِفُ بهذا الدعاء الحارِّ، ومِلْءُ القلوبِ أمَلٌ، ومِلْءُ الأنفاسِ تَوسُّلٌ ورجاء».

اللَّهمَّ قاهِرَ القَياصِر، ومُذِلَّ الجبابِر، وناصرَ مَن لا له ناصر، رُكْنَ الضَّعيفِ ومادَّةَ قُواه، ومُلْهِمَ القويَّ خَشْيتَه وتَقْواه، ومَن لا يَحكُمُ بيْن عِبادِه سِواه، هذه كِنانَتُك فَزِعَ[٢] إليك بَنوها، وهَرَعَ إليك ساكِنوها، هلالًا وصليبًا[٣]، بعيدًا وقريبا، شُبَّانًا وشِيبًا، نجِيبةً ونَجِيبًا[٤]، مُسْتَبِقينَ[٥] كنائِسَكَ المكرَّمة، الَّتي رفَعْتَها لقُدْسِكَ أعتابًا، مُيَمِّمينَ مَساجِدَكَ المعظَّمة، الَّتي شرَعْتَها لكَرَمِكَ أبوابًا، نَسأَلُك فيها بعيسى رُوحِ الحقّ، ومحمَّدٍ نَبيِّ الصِّدْق،

---

(١) [انظر «**التاريخ الإسلامي**» لمحمود شاكر (١٣/ ١٨-٣٣). وألقِ نظرة على قصيدة «مشروع ملنر» المثبتة في الجزء الأول من «الشوقيات»].(و)

(٢) **فزِع إليه**: استغاثه.

(٣) **أي**: مَن يحمل الهلال ومَن يحمل الصليب.

(٤) **النجيب**: الكريم الحسَب، **والنجيبة**: مؤنَّثه.

(٥) **استَبَقوا**: **أي**: تَسابَقوا إلى.

وبموسى الهاربِ مِنَ الرِّق، كما نَسألُكَ بالشَّهرِ الأَبرِّ والصَّائِميه(١)، ولَيْلِه الأَغَرِّ والقائِميه، وبهذه الصَّلاةِ العامَّةِ مِن أقباط الوادي ومُسْلِميه(٢)؛ أن تُعزَّنا بالعِتقِ(٣) إلَّا مِن وَلائِك، ولا تُذِلَّنا بالرِّقِّ لغيرِ آلائِك، ولا تَحمِلْنا على غيرِ حُكْمِك واستِعلائِك(٤).

اللَّهمَّ إنَّ المَلأَ(٥) مِنَّا ومنهم قد تَداعَوْا(٦) إلى الخُطَّة الفاضلة، والكَلِمةِ الفاصلة، في قضيَّتِنا العادلة، فآتِنا اللَّهمَّ حقوقَنا كاملة، واجعَلْ وَفْدَنا في دارِهِمْ هو وَفْدَك، وجُندَنا الأَعْزَلَ إلَّا مِنَ الحقِّ جُندَك، وقَلِّدْه(٧) اللَّهمَّ التَّوفيقَ والتَّسديد، واعْصِمْهُ في رُكنِكَ الشَّديد.

أَقِمْ نُوَّابَنا المَقامَ المحمود، وظَلِّلْهُمْ بظِلِّكَ المَمدود، وكُنْ أنت الوكيلَ عنَّا توكيلًا غيرَ محدود.

---

(١) **أي**: الذين يصومون فيه، وكذلك القائميه. وهنا «أل» موصولة.

(٢) [**قلت**: هذا الدعاء مما لا يجوِّزه الشارع الحكيم؛ فقد اشتمل على جملة من المناهي، منها القسم بالمخلوق على الله أو السؤال بسببه، إذ الباء في قول المؤلف: «نسألك فيها بعيسى ...» إلخ، تحتمل معنيين: إما أن تكون للقسم، وإما أن تكون للسبب.

فأما الأول ـ فالقسَم بالمخلوقات، لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق؟!

وأما الثاني ـ وهو السؤال بمعَظَّم فالراجح من قولَي العلماء مَنْعُه، وإليه ذهب الإمام أبو حنيفةَ وأصحابُه، وقالوا: «إنه لا يجوز»، وقالوا: «لا يُسأل بمخلوق، ولا يقول أحد: أسألك بحق أنبيائك».سطر ذلك في «**قاعدة جليلة**».

ثم يقال ـ زائدًا إلى ما تقدم ـ: كيف يستقيم أن يُتوسل بالبقاع التي يُشتم الله فيها فيقال: اتخذ صاحبة وولدًا؟!! ويُكذَّب قولُه، فيقال: قُتل المسيح وصُلب!، والله يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٥٧-١٥٨). فاللهم غفرًا].

(٣) **العتق**: التحرير من الرِّق.

(٤) **الاستعلاء**: الغلبة.

(٥) **الملأ** هنا بمعنى: أشراف الناس.

(٦) أي: اجتَمَعوا.

(٧) **قلَّده السيفَ**: وضع حِمالتَه في عُنقه.

سُبحانَكَ لا يُحَدُّ لك كرَمٌ ولا جُود، ويُرَدُّ إليك الأمرُ كُلُّه وأَمْرُك غيرُ مَرْدود.

واجعَلِ القَومَ مُحالفينا، ولا تَجعَلْهُم مُخالفينا، واحمِلْ أهْلَ الرَّأيِ فيهم على رأيِكَ فينا.

اللَّهمَّ تاجَنا منك نَطْلُبُه، وعَرْشَنا إليك نَخْطُبُه، واستِقلالَنا التَّامَّ بك نَستَوْجِبُه، فقَلِّدْنا زِمامَنا، ووَلِّنا أحكامَنا، واجعَلِ الحقَّ إمامَنا، وتَمِّمْ لنا الفَرَح، بالَّتي ما بعدها مُقْتَرَح، ولا وراءَها مُطَّرَح[١].

ولا تَجْعَلْنا اللَّهمَّ باغِين، ولا عادِين، واكتُبْنا في الأرضِ مِنَ المُصْلِحِين، غَيرِ المُفسِدِينَ فيها ولا الضَّالِّين ... آمِينَ[٢].



(١) اطَّرَحَ الشَّيءَ: أَبْعدَه وطرَحَه.

(٢) [معنى آمين: اللهمَّ استجب، وقيل: كذلك فليكُنْ؛ أي: الدعاء. وآمين اسمٌ مبنيٌّ على الفتح، وفي نطقه وجهان: بقصر الألف (أَمين)، ومدِّها (آمين). قال الزَّجَّاج في «معاني القرآن وإعرابه»، وعنه الأزهريُّ في «تهذيب اللغة»: هُما موضوعان في موضع الاستجابة، كما أن قولنا (صَهْ) موضوعٌ موضعَ (سُكوتًا). وحقُّهما من الإعراب الوقف؛ لأنهما بمنزلة الأصوات؛ إذ كانا غيرَ مشتقَّينِ مِن فعل، إلَّا أن النون فُتِحت فيهما؛ لالتقاء الساكنين. فإن قال قائل: ألا كُسِرَتِ النونُ لالتِقاء الساكنَين؟ قيل: الكسرة تَثْقُلُ بعد الياء، ألا ترى أنَّ (أينَ) و(كيفَ) فُتِحتا لالتقاء الساكنَينِ ولم تُكْسَرَا؛ لِثقَلِ الكسرة بعد الياء]. (و)

الشَّبـــاب

الشَّبابُ أيَّامُ آذار[١]، ودَولةُ العِذار[٢]، وأَعِنَّةُ الأَوْطار[٣]، وليلةُ العُرسِ في هذه الدَّار. سِنَةٌ كالطَّيفِ سُرَاها[٤]، وكقُبْلةِ الخَلْسِ[٥] حُلُمُ كَرَاها[٦]، ونَشْوةٌ يَتلفَّتُ المُستفِيقُ لا يَراها، وجِنَّةٌ لو خُيِّرَ المُقْبِلُ[٧] بالعقلِ اشتَراها. العِشقُ في غيرِ جَناحِه[٨]، طائرٌ لا يَنهَضُ به جَناح، والكأسُ مِن غيرِ راحِه[٩]، غَبِيَّةُ السَّاقي بَلِيدةُ الرَّاح[١٠]. والمالُ في غيرِ خِزانتِه غريب، ويَتحوَّلُ عن قريب. رُؤْيا الوارِثِ في نَومِه، وشُغلُه في يَومِه. ومِلْكُ يدِه، في غدِه. السُّلطانُ والدَّوْلة، والإمكانُ والصَّوْلة، والمُلْكُ وكلُّ ما حَوْلَه. نِعَمٌ إذا لم تُحْرَزْ في الشَّبابِ فما هي في الحِزْرِ الحَرِيز[١١]، ودُوَلٌ إذا لم تَعتَزَّ به فليست في الذَّرا[١٢] العزيز. ولَذَّاتٌ إذا لم يَشْهَدْها غادَتْها حَسْرةُ الفَوْت، وراوَحَتْها فِكرةُ المَوْت.

أَرْوَعُ الشُّهرةِ ما طار في سمائِه، وأَمتَعُ الصِّيتِ[١٣] ما سار تحتَ لِوائِه، وأَحسَنُ الثَّناءِ

---

(١) آذار: في الشهور العِبرية يقابل «مارس» في الشهور الإفرنجية، وهو مستهَلُّ الربيع.

(٢) العِذار: جانب اللحية.

(٣) الأوطار: الأغراض.

(٤) السِّنَة: الغفلة أو فتور يتقدم النوم. والسُّرَى: السَّير في الليل.

(٥) الخلْس: من خَلَسَ الشيءَ، أخذه في مخاتلة.

(٦) [الكَرَى: النُّعاس والنوم].(و)

(٧) الجِنة: الجنون. والمقبل: المجنون يُشفَى من جنونه.

(٨) في غير كَنَفِه.

(٩) [الراح: الخمر، و: الارتياح، و: جمع (راحة) وهي: الكفُّ، والأخير هو المراد الأول].(و)

(١٠) غباوة الساقي وبلادة الراح: كناية عن ضآلة فرحِها وضَعفِ نشوتها.

(١١) الحِرْز الحَرِيز: الحصين المَنِيع.

(١٢) الذَّرا: الكنف والملجأ.

(١٣) [الصِّيت: الذِّكر الجميل الذي ينتشر في الناس. قاله في «الصحاح»].(و)

ما أَتَى في أثنائِه، ورَفَّ على قَشِيبِ رِدائِه[١]. في مَطالِعِه يَرُوعُ[٢] النُّبوغ، كما تَروعُ الشَّمسُ في البُزُوغ، أوِ الهلالُ الغُلامُ[٣] في البُلوغ.

فيا ناهِبَ شبابِه، قاعدًا للتَّجْرِ[٤] ببابه، يُسْرِفُ في الرَّحيقِ وحُبابِه[٥]، ويُتْلِفُ الصِّبا بيْن صَبابَتِه وأحبابِه... أَفِقْ! تلك دِنَان[٦]، لا تَقْوى على الإدمان[٧]، ولا يَمْلَؤُها مرَّتَينِ الزَّمان، كَرْمٌ لا يوجَدُ في الجِنان، ولا يَنبُتُ في «مالَقَة» ولا «شَمْبَان»[٨]. عَناقِيدُه

(١) **الرداء القَشِيب**: الجديد النظيف.

(٢) [راعَهُ الشيءُ: أعجبه].(و)

(٣) **أي**: الصغير.

(٤) **التاجر**: بائع الخمر.

[**قلت**: قال الجوهري: العرب تسمي بائعَ الخمر تاجرًا. ثم أنشد للأسود بن يَعفُر:

ولقد أروح على التِّجار مُرَجّلا ... مَذِلًا بمالي لَيِّنًا أجيادي

أي: مائلًا عنقي من السُّكْر].

(٥) **الرحيق**: الخمر. **والحُبَاب**: الحُب.

(٦) **جمع دَنّ**: وهو إناء الخمر.

(٧) **الإدمان**: مداومة الشراب.

(٨) **شمبان**: مقاطعة في فرنسا اشتهرت بجودة الخمور. **ومالقة**: مدينة في إسبانيا في ضواحيها كروم يُستخرج منها نبيذ «ملقا» المشهور.

وقد استعاض المؤلف بهذين البلدين عن «بابل» و«أندرين»، وعما اعتاد العرب أن يذكروا من البلاد إذا ذكروا الخمور...

[**قلت**: قال: ياقوت في «**معجم البلدان**» (١/ ٢٦٠-٢٦١): أَنْدَرِينُ: اسم قرية في جنوبي حلب بينهما مسيرة يوم للراكب في طرف البرية ليس بعدها عمارة، وهي الآن خراب ليس بها إلا بقية الجدران، وإيَّاها عَنَى عمرو بنُ كلثوم بقوله:

ألا هُبِّي بصَحْنِكِ فاصبَحِينا ... ولا تُبْقِي خُمورَ الأَنْدَرِينا

قال: وهذا مما لا شك فيه، وقد سألت عنه أهل المعرفة من أهل حلب فكلٌّ وافق عليه، وقد تكلف جماعة اللغويين لَمَّا لم يعرفوا حقيقة اسم هذه القرية، وألجأتهم الحَيْرةُ إلى أن شرحوا هذه اللفظة من هذا البيت بضروب من الشرح... ثم شرع يذكر طائفة من أقوالهم منبهًا على مباينتها لوجه الصواب].

مُختضَرَةُ[١] الثِّمار، مُختصَرةُ الأعمار، بريئةُ الخمرِ مِنَ الخُمار[٢]. حَلَبُها[٣] الأفراح، وجَلَبُها المِراح، وهي فارِضِيَّةُ[٤] الرَّاح، لم تَطَأْها الأقدامُ ولم تَمَسْسْها الرَّاح[٥].

فلا تَعُبَّ الرَّاقود[٦]، واشرَبْهُ نُغْبَةً نُغبة[٧]، ولا تَختَرِطِ[٨] العُنقود، وكُلْهُ حَبَّةً حبَّة.



(١) **اختُضِرَ الكلأ**: قُطع وهو أخضر.

(٢) **الخُمَار**: صداع الخمر وأذاها.

(٣) **الحلَب**: اللبن المحلوب.

(٤) **فارضية**: نسبة إلى ابن الفارِض.

[**قلت**: هو عمر بن أبي الحسن عليّ بن مرشد بن عليّ، أبو حفص، الملقَّب بسلطان العاشقين، المتوفَّى سنةَ اثنتين وثلاثين وست مئة [٦٣٢هـ]، أشعر شعراء الصوفية، والناعق بالاتحادية في التائية، فكان على غير السبيل. ومعلومٌ شِعرُه الخَمْري الرُّوحي، ومشهورةٌ قصيدتُه الميميَّة التي مطلعها:

شَرِبْنا على ذِكْرِ الحبيب مُدامةً ... سَكِرْنا بها قبلَ أنْ يُخلَقَ الكَرْمُ

لُقب أبوه بالفارض؛ لأنه كان يُثبت فروض النساء على الرجال بين يدي الحكام].

(٥) الأكُفّ.

(٦) **عَبَّ الماءَ**: شربه بلا تنفُّس. **والراقود**: دَنُّ الخمر.

(٧) جَرْعةً جرعة.

(٨) **اخترطَ العُنقودَ**: وضعه في فمه ثم أخرج عُودَه عاريًا.

الخَـيْـــر

شجَرةٌ مَرْآها جميل، وظِلُّها مَقِيل[١]، وأَعالِيها هَدِيل[٢]، وهي مُذَلَّلَةُ السَّبيل، الطَّيرُ على جَوانِبِها تَميل، والنَّاسُ في ظِلِّها الظَّلِيل؛

فأمَّا الطَّيرُ فتَنزِلُ مُجمِلات[٣]، وتَرحَلُ غيرَ مُحمَّلات، تَسقُطُ مُشْفِقات، وتَلْقُطُ مُترَفِّقات، وتَشْدُو بشُكْرِ الصَّنيع مُنطَلِقات.

وأمَّا النَّاسُ فلا يَتَّئِدون في الثَّمَرة[٤]، ولا يُرَفِّهون عنِ الشجرة[٥]. يَهُزُّون أُصولَها بعُنْف، ويَنفُضُون فُروعَها بغيرِ لُطْف. يُساقِطون الجَنَى[٦]، بطَرَفِ العَصَا، ويَستنزِلون الثَّمَر، برَمْيِ الحَجَر. يَلُمُّون ويَلُومون[٧]، ويَطْعَمون ويطْعَنون، ويَلْعَقون[٨] ويَلْعَنون، يَجْنُون الثَّمَر، ويَلْحُون[٩] الشَّجَر!!!



(١) **المقيل**: الذي يُؤْوَى إليه عند الظهيرة.

(٢) **الهديل**: صوت الحمام.

(٣) **أَجْمَلَ في الطلب**: رفَق.

(٤) لا يتمهلون في جَنْيِها.

(٥) **رَفَّه عنه**: نَفَّسَ وخفَّف.

(٦) **يساقطونه: أي**: يتابعون إسقاطه. **والجَنَى**: ما يُجنى من الشجر ما دام غَضًّا. [قلت: وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (الرحمن:٥٤)، أي: ثمرهما قريب].

(٧) يلمون الثمر ويلومون الشجر؛ لأنه لم يُشبع نَهَمَهم.

(٨) **لَعِقَ العسلَ**: لَحِسه، **والمراد**: التمتع بحلاوة الثمر.

(٩) **لحا الشجرةَ**: قشرها، **ولحاه أيضًا**: سبَّهُ وعابه.

الظُّـلْــم

قليلُ المُدَّة، كَلِيلُ العُدَّة[١]، وإنْ تَظاهَرَ بالشِّدَّة، وتَناهَى في الحِدَّة. عَقْربٌ بشَوْلَتِها[٢] مُحتالَة، لا تَعْدَمُ نَعْلًا قتَّالة. ريحٌ هَوْجاءُ لا تَلْبَثُ أنْ تَتمزَّقَ في البِيد[٣]، أو تتحطَّمَ على أطرافِ الجَلاميد[٤]، فتَبِيد. جامحٌ[٥] راكِبُ رأسِه، مُخايِلٌ ببأسِه. غايتُه صَخرةٌ يوافيها، أو حُفرةٌ يَتَردَّى فيها. سَيْلٌ طاغٍ لايَعْدَمُ هِضابًا[٦] تَقِفُ في طريقه، أو وِهَادًا[٧] تَجتمِعُ على تَفريقِه. جِدارٌ مُتداعٍ أَكْثَرُ ما يَتهدَّد[٨]، حين يَهُمُّ أن يَتهدَّد[٩]. هو غدًا خَراب، وكُومةٌ مِن تُراب. نارٌ مُنقطِعةُ المَدَد، وإنْ سَدَّتِ الجَدَد[١٠]، ومَلأتِ البلَد، يأكُلُ بعضُها بعضًا كنارِ الحسَد.



---

(١) **السيف الكَليل**: الذي لا يَقطع.
(٢) **الشَّوْلة**: ما ترفع العقربُ من ذَنَبِها.
(٣) جمع **بَيْدَاء**، وهي الفلاة.
(٤) جمع **جُلْمود**، وهو الصخر.
(٥) أي: فرس جامح.
(٦) [**الهضاب**: الصخور الضخمة الصُّلبة. مفردها: هَضْبة، بتسكين الضاد لا تحريكِها، فكن على ذُكر من هذا]. (و)
(٧) جمع **وَهْدَة**، وهي الهُوَّة في الأرض.
(٨) أي: أكثر ما يخاف منه.
(٩) يسقط.
(١٠) الطريق الواسع.



القَلْــب

يا طبيبَ الجَماعة: قُمْ أَلْقِ السَّماعة، وسَلْ هذه السَّاعة[١]، مَن أَدَقَّ اللَّحمَ صِناعة، ومَنَح الدَّمَ المَناعة؟ مُضْغَةٌ[٢] إذا فَتَرَتْ[٣]، سُلِبْتَ البَراعة، ولَبِسْتَ العَجْزَ والضَّرَاعة[٤]، تَدابيرُكَ عِندَئذٍ مُضاعة، وعَقاقيرُكَ مُزْجاةٌ[٥] بِضاعة.



(١) المراد بالساعة هنا: القلب؛ شُبِّه بها بجامع الدَّقِّ المنتظِم في كلٍّ.

(٢) قطعة لحم.

(٣) **فتَرَ**: سَكَنَ بعد حِدَّته.

(٤) **الضراعة**: الضَّعف.

(٥) **البضاعة المُزْجاة**: أي: الرديئة.

الذِّكْرَى (٢)

مِنَ البِرِّ يا قلْبُ أن نَدَّكِرْ[١] فمِلْ بي على الفائِتِ المُنْدَثِرْ
ولا تَأْلُ[٢] ذِكْرَى ولا تَدَّخِرْ

هَلُمَّ نَنْشُرْ مَطْوِيَّ الصَّفحات، ونُقَرِّبْ نازِحَ[٣] اللَّذَّات، ونَؤُبْ مِن سَفَرِ الأَيَّامِ بغائبِ اللُّبانات[٤]. أَعِدْ عليَّ مِن دقَّاتِ ناقوسِكَ ترنيما[٥]، كان لذيذَ الحَواشي رَخيمًا؛ ومِن دقائقِ ساعتِكَ ما رَنَّ في أُذني قدِيمًا. فما زِلتَ يا قلبُ تَقْضي الحُقوق، وتَذْكُرُ العُهودَ فتَجْزِيها التَّلَفُّتَ[٦] والخُفوق، حتَّى كأنَّكَ قَلْبانِ، اثنانِ: قلبٌ مع الماضي مُتخَلِّفُ العِنان، وقلبٌ يُسايِرُ رَكْبَ[٧] الزَّمان. بِعَيشِكْ قُلْ[٨] لي: مَنْ عَلَّمَك رَدَّ الأحلام؟ ورُجوعَ القَهْقَرَى في نَواحي الأيام؟ ومَن رَسَمَ لك الإلمام[٩]، بِدِمْنَةِ عَيْشٍ أو بِرَسْمِ غَرام[١٠]؟ ومَن علَّم الدَّمَ وَصْلَ الحِبال[١١]، وحَمَّلَ اللَّحمَ ما يُوهِنُ الجبال، مِنَ الحَنينِ إلى سالفٍ خالٍ، أو البُكاءِ على دارسٍ بالٍ؟ وما سُلْطانُكَ يا قلبُ حتى تُدْنِيَ المُمْعِنَ[١٢] في بُعْدِه، وتَجِدَه

(١) ادَّكَرَ الشيءَ: ذَكَرَه.
(٢) ألَا في الأمر يألُو: قصَّرَ فيه وأبطأ.
(٣) النازح: البعيد.
(٤) آب يؤوب: رجع. واللُّبانات: الحاجات.
(٥) الترنيم: تطريب الصوت.
(٦) تلفُّت القلب: كناية عن الشوق.
(٧) الركب: ركاب الخيل أو الإبل.
(٨) [في مثل هذا القول نظر، وقد سلف بيان موضع الغميزة فيه].(و)
(٩) رسم له كذا: أمره به. وألمَّ بالقوم إلمامًا: زارهم زيارة قصيرة.
(١٠) الدِّمنة: آثار الدار. والرسم: ما كان لاحِقًا بالأرض من هذه الآثار.
(١١) المراد بالحبال هنا: العهود.
(١٢) الممعِن: المُبالِغ.



وإنْ تَطاوَلَ العهدُ على فَقْدِه؟ ومَن علَّمك أن تَتحدَّث، وتُقلِّبَ الأقْدمَ والأَحْدَث[١]؟ وتَذْكُرَ الصِّبا وأيَّامَه، ووادِيَهُ وآرامَه[٢]، وبِساطَه ومُدامَه؟

هو اللهُ الَّذي صَوَّرك فأدَقَّك، وقَدَّر خُفوقَك ودَقَّك، ومَهَّدَك وزَقَّك[٣]، وكَتَبَ عليك في الضُّلوعِ رِقَّك[٤]. وما أنت لولا التَّذكُّرُ والفِكَر، إلَّا كبعضِ القلوبِ إذْ هيَ حَجَر، يَنفجِرُ بالعَذْبِ ولا يَعْلَمُ كيف انفجَر، ولامتى نَبَعَ ولا أين انحدَر؛ أو كالأرضِ يَذهَبُ شجرٌ ويأتي شجر؛ فلا تَذكُرُ ما غاب ولا تَشْعُرُ بما حَضَر.



(١) مبالغة في القديم والحديث.

(٢) **الآرام**: جمع رِئْم، وهو الظَّبي الخالص البياض.

[**قلت**: ويجمع أيضًا على أَرْآم، وعليه قول امرئ القيس في طويلته:

تــرى بـعــرَ الأَرْآمِ في عَـرَصـاتـهـا وقِـيـعـانِـهـا كـأنَّـه حَـبُّ فُـلْـفُـلِ

وقول زُهَيْر بن أبي سُلْمَى:

بـهـا الـعِـينُ والأَرْآمُ يَـمشـينَ خِلْفَةً وأَطـلاؤُهـا يَـنْـهَـضْـنَ مِـن كـلِّ مَجْـثِـمِ

وأطلاؤُها: أي: أولادُها].

(٣) **زقَّ الطائرُ فرخَه**: أطعمه بمِنْقاره.

(٤) إشارة إلى سجنه تحت الضلوع من يوم الميلاد إلى يوم الوفاة.

شاهِدُ الزُّور

يا شاهِدَ الزُّور، أنت شَرٌّ مَوْزُور[١]، ضَلَّلْتَ القُضاة، وحَلَفْتَ كاذبًا بالله، ونِلْتَ الأَبرياءَ بأَذاة[٢]، وحُلْتَ بيْنَ القِصاصِ والجُناة، واللهُ يَقولُ: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩).



(١) **المَوزور:** الذي يحمل الإثم.

(٢) المكروه.

الصَّبْـر

بعضُ الصَّبرِ تَجلُّد، وثَمَّ الحَزْمُ والرِّضاء؛ وبعضٌ تبَلُّد[١]، وهنا العَجْزُ والاسْتِخْذاء[٢].

ليس الصَّبرُ غِلْظَةَ القلْب، وبلادةَ اللُّب؛ أو الجهلَ على الأقدار، وإنكارَ الإيرادِ عليها والإصْدار؛ ولا هو اكتِظاظُ الأندية[٣]، وألفاظٌ تجري بالتَّعزية، ورجُلٌ يُحدِّثُك بالصَّبر، وإذا أُصيبَ تمَنَّى القبر!

إنَّما الصَّبرُ استرْجاعُكَ[٤] في النَّفْسِ الحَزينة، حتى تَفيءَ[٥] إلى السَّكينة، وتَجيءَ[٦] مِن نفْسِها إلى الطُّمَأْنينة. إيمانٌ يَزَع[٧]، عِندَ الجَزَع؛ وعقلٌ يَزِن، إذا القلبُ حَزِن؛ ومُقابَلةُ الأحكامِ بالحِكْمة؛ والعِلمُ بأنَّ النِّعمةَ نَذيرُ النِّقمة؛ وبأنَّ الدَّهرَ حالتان، والدُّنيا حُلَّتان؛ وأنَّ مَن لم ينتفِعْ بالضَّجَرِ رَضي[٨]، وأنَّ لكلِّ شيءٍ غايةً ويَنْقَضي[٩].

---

(١) **التبلُّد**: الحيرة والتلهُّف.

(٢) **الاستخذاء**: الخضوع.

(٣) امتلاء المجامع بأخلاط المعزين.

(٤) قولك: «**إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون**».

(٥) ترجع.

(٦) تلتجئ.

(٧) يَمنع من الحزن.

(٨) [قلت: قال أبو العَتاهِيَة:

إنَّما الدُّنيا هِباتٌ ... وعَوارٍ مُستَرَدَّهْ

شِدَّةٌ بَعدَ رَخاءٍ ... ورخاءٌ بعدَ شِدَّهْ

ويُروى عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في تفسير قول ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق:١٩): «أمرًا بعد أمر؛ رخاءً بعد شدة، وشدة بعد رخاء؛ وغنًى بعد فقر، وفقرًا بعد غنًى؛ وصحَّة بعد سَقَم، وسقمًا بعد صحَّة».]

(٩) [قلت: أي سلَّم. بَيْدَ أن رضاءه في تلك الحالة لا طائل تحته؛ إذ لا أجر لمن لا له احتساب، وإنما الصبر عند =





=الصدمة الأولى، وفارقٌ بين صبر الكرام وصبر اللئام، وقد قالت الحكماء: «مَن لم يصبر صبر الكرام، سَلا سُلُوَّ البهائم».
ورَوَوْا أن عليَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال للأشعث بن قيس يعزِّيه في ابن له: «إنْ تحزنْ فقد استحقَّت ذلك منك الرحم، وإن تصبرْ فإنَّ في الله خَلَفًا من كل هالك، مع أنك إنْ صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزِعت جرى عليك القدر وأنت آثم».
هذا، وقد قال حذيفة بن اليماني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إن الله لم يخلق شيئًا قطُّ إلَّا صغيرًا ثم يكبر، إلا المصيبة؛ فإنه خلقها كبيرة ثم تصغر».
طالعْ -أدام الله توفيقك- كتابَ «بهجة المجالس» للإمام ابن عبد البر (٣/ ٣٤٩-٣٦٧)، وكتاب «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن قيِّم الجوزية].

شَهادةُ الدِّراسة وشَهادةُ الحَياة

ما بالُ النَّاشِئِ وَصَلَ اجتهادَه، حتى حَصَلَ على الشَّهادَة، فلمَّا كَحَّلَ بأَحرُفِها عينَيْه، وظَفِرَتْ بزُخرُفِها كِلْتا يدَيْه، هَجَرَ العِلْمَ ورُبوعَه، وبعَثَ إلى معاهِدِه بأُقْطُوعة[١]، طَوَى الدَّفاتِر، وتَرَكَ المحابِر، وذهب يُخايِلُ[٢] ويُفاخِر، ويَدَّعي عِلْمَ الأوَّلِ والآخِر؟!

فمَن يُنْبيه[٣]، بارَكَ اللهُ فيه لأبيه، وجَزَى سَعْيَ مُعلِّمِه ومُرَبِّيه: أنَّ الشَّهادةَ طَرَفُ السَّبب[٤]، وفاتحةُ الطَّلَب، والجواز[٥] إلى أقطار العِلمِ والأدب؛ وأنَّ العِلمَ لا يُمْلَكُ بالصُّكوكِ والرِّقاع[٦]، وأنَّ المعرفةَ عِندَ الثِّقاتِ غيرُ وثائِقِ الإقطاع[٧]؟ ومَن يَقولُ له أَرْشَدَهُ الله: إنَّ شَهادةَ المَدْرَسةِ غيرُ شَهادةِ الحياة؟

فيا ناشِئَ القَومِ بَلَغْتَ الشَّباب، ودفَعْتَ على الحياة الباب، فهل تأهَّبْتَ للمَعْمَعة[٨]، وجهَّزْتَ النَّفْسَ للمَوقِعة، ووطَّنْتَها[٩] على الضِّيق بَعْدَ السَّعة، وعلى شَظَفِ العَيشِ بعد الدَّعة؟ دَعَتِ الحياةُ: نَزَال[١٠]، فهلُمَّ اقتحِمِ المجال، وتَوَرَّدِ[١١] القِتال، أعانَك اللهُ

---

(١) **الأُقطوعة**: شيء تبعث به الجاريةُ إلى الأخرى علامةَ المقاطعة والخِصام.

(٢) **خايلَ زميلَه**: باراه وفاخره.

(٣) أي: يخبره.

(٤) **السبب** هو الحبل، **وطرف السبب**: يراد به مبدأُ الحياة.

(٥) **الجواز**: علامه المرور وصَكُّ المسافر.

(٦) **الصك**: الكتاب، والجمع صُكُوك. والرِّقاع: جمع رُقْعة، وهي القطعة المكتوبة من الورَق.

(٧) **الإقطاع**: أن يجعل الأميرُ غلةَ البلد للجند.

(٨) **المعمعة**: صوت الأبطال في الحرب.

(٩) **وطَّنَ نفْسَه على الأمر وله**: مهَّدَها لفعله وحمَلَها عليه.

(١٠) اسم فعل أمر بمعنى انزل.

(١١) **تورَّدَ الماءَ**: وَرَدَهُ.

على الحياة. إنَّها حَرْبُ فُجاءات، وغَدْرٌ وبَيات[١]، وخِداعٌ مِنَ النَّاسِ ومِنَ الحادثات. فطُوبى[٢] لِمَنْ شَهِدَها كاملَ الأدوات، مَوْفورَ المُعَدَّات؛ سِلاحُه، صَلاحُه؛ وتُرْسُه، دَرْسُه؛ ويَلَبُه[٣]، أدَبُه؛ وصَمْصامَتُه[٤]، استِقامتُه؛ وكِنانَتُه[٥]، أمانَتُه؛ وحَرْبَتُه، دُرْبَتُه[٦]....[٧].

---

(١) **البَيَات**: الإيقاع بالعدو ليلًا.

(٢) شجرة في الجنة كما يقال. وهي الجنة عند الهنود.

[**قلت**: طُوبَى: فُعْلَى من الطِّيب، قلبوا الياءَ واوًا؛ للضمة قبلها. قاله في «**الصحاح**». وأما أنها شجرة في الجنة؛ فلِما روى أحمد في «**المسند**» (٣/ ٧١) عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «**طُوبى شجرةٌ في الجَنَّةِ، مَسيرةُ مائةِ عامٍ، ثِيابُ أهْلِ الجَنَّةِ تَخرُجُ مِن أَكْمامِها**». وله شواهدُ انظرْها في المجلد الرابع من «**الترغيب والترهيب**» للحافظ المُنْذِريِّ: فصْلٌ في شجر الجنة وثمارِها].

(٣) **اليَلَب**: الدروع اليمانيَة.

(٤) **الصَّمْصام، الصَّمْصامة**: السيف الذي لا ينثني.

(٥) **الكنانة**: جَعْبَة السهام.

(٦) **الدُّربة**: الاختبار والتجرِبة.

(٧) [تذييل وتكملة:

قلت: قد قال المؤلف في قصيدة «الانتحار»:

واطْلُبوا العِلْمَ لِذاتِ العِلْمِ لا لِشَهاداتٍ وآرابٍ أُخَرْ

كم غُلامٍ خامِلٍ في دَرْسِهِ صارَ بحرَ العِلْمِ أُستاذَ العُصُرْ

وعلَّق على هذا المعنى الَّذي طرقه شوقي: أميرُ البيان شكيب أرسلان، فقال في كتابه: «شوقي أو صداقة أربعين سنة» (ص٢٤٣): «كم أصاب شوقي في قوله: «**اطلبوا العلم لذات العلم**»؛ فقد رأيت كثيرًا من الشبَّان يجعلون جميع وَكْدِهم (= همِّهم وقَصْدِهم) في تحصيل الشهادة، ويَرَوْن بها منتهى السعادة، وإذا حصَل الواحد عليها ظنَّ نفسه عالمًا لا يجوز أن يُقال له: أخطأت! أوَ ليس إنه أحرز الشهادة؟! ورأيت شبَّانًا آخرين يكاد أحدهم يذوب حسرة وتألمًا على كونه لم يُصب الشهادة، ولم يفُزْ بها فاز به غيره، وهو يتخيل أن الأرض قد ابتلعته!

فكنت أقول للفئة الأولى: لا يغرنكم نيلُ الشهادة فتناموا بعدها قائلين لأنفسكم: إنكم صِرْتُم علماء؛ بحُجة أن الشهادة هي في أيديكم! بل يجب أن تثابروا على الدرس والتحقيق، كأن شهادتكم لم تكن؛ فالشهادة ليست العِلم.

وكنت أقول للفئة الثانية: ... واعلموا أن الشهادة ليست هي العِلمَ الحقيقي، بل هي علامة من علاماته. فمَن عرَف نفسه قد أحكم الفن الذي عكف عليه فلا ينبغي أن يحزن على تأخُّر الشهادة، ومَن عرَف نفسه =





=لا يزال غيرَ ضليع في العلم الذي درسه فلا ينبغي أن يفرح بهذه الورقة التي أعطاه إياها الأساتيذ، وكثيرًا ما قدَّموا متأخِّرًا، وأخَّروا متقدِّمًا! فكم من طالبٍ تأخَّر أيامَ التحصيل ثم بعد خروجه من الجامعة نبغ وتقدم وصار من كبار العلماء. وهذا كما يقول شوقي الذي قسم الله له من المنطق ما لم يقسم إلا لأعاظمِ الفلاسفة».

هذا، وقد سمِعت الأديب الكبير عباس محمود العقاد يقول -في حوارٍ أجراه معه التلفزيون المصري قديمًا- وقد سُئل عن إسهاماته في الأدب، فقال: «لعل أكبر شيء ساهمت به في مصلحة الأدب هو أني حطمت قيود الألقاب والبرامج الدراسية؛ جعلت للتفكير قيمةً مستقلةً عن الألقاب والبرامج الدراسية»... ثم ذكر كلامًا عن إسهاماته في مجال الشعر، وأشار في أثناء ذلك إلى مدرسة الديوان، ثم عاد إلى تأكيد مقالته الأولى، فقال: «وأظن أن رسالتي الأولى التي هي أهَمُّ: أنِّي استطعت أن أجعل المفكر يعتمد على تفكيره هو، ولا يعتمد على ألقابه أو على برامجه الدراسية».

ومعلومٌ أن الأستاذ العقاد لم يحصُل على أكثرَ من الشهادة الابتدائية، وشاركه في ذلك جمعٌ من العظماء، منهم أمير الأدباء مصطفى صادق الرافعي؛ إذ كانت الشهادة الابتدائيةُ هي كلَّ ما نال من الشهادات الدراسية]. (و)

الحَيَـــاة

القَبَس(١)، والنَّفَس، والرُّوحُ القُدُس. ظاهِرُها هذه الجيفة(٢)، وباطِنُها النَّفْسُ الشَّريفة. تَبِعَةُ الذَّنْبِ القديم(٣)، وأَثَرُ آدمَ على الأديم(٤). فيا طَرِيدَ القَدَر(٥)، ونَفِيَّ الحُظُر(٦)، وأبا البَشَر، ما أَطْوَلَ ذَماءَك(٧)، وأَدْوَمَ ماءَك، وما أَكْثَرَ بناتِكَ وأبناءَك، وأَقَلَّ اهتِمامَكَ بهم واعتِناءَك! وَلَدْتَ للمَوْت، وأَوْجَدْتَ للفَوْت. تَقَسَّمَ القَبَسُ نُفوسًا بلا عَدَد، وتَفرَّقَ النَّفَسُ في شتَّى الوَلَد، فلَيْتَ شِعْري كيف استَقلَّها صَلْصالُك(٨)، وكيف قَوِيَتْ عليها أَوْصالُك(٩)، آمَنًّا بأنَّك الجَدّ، فهل لهذا التَّدَفُّقِ حَدّ، أَمْ ما لأمرِ الله مَرَدّ؟

الحياةُ كعَهْدِكَ بها مَعْصية، عنِ الحَظيرةِ مُقْصِية، وخَلْوة، حُلْوة. عَواقِبُها نَغَص(١٠)، ومَشارِبُها غُصَص. أَفْعَى خَدَّاعة، ولَذَّةٌ لَذَّاعة. شَوْكٌ بَغَّضَ الوَرْد، وقَذًى نَغَّصَ الوِرْد(١١). أُمورٌ شَتَّى الأَعِنَّة، وحَوداثُ وُقَّعٌ وأَجِنَّة(١٢). فقُلْ لِمَن أطال التَّفكير، وبالَغَ في النَّكير(١٣)، وكَدَّ بالَه، ومَدَّ بَلْبالَه(١٤)، واحتَرَقَ احتِراقَ الذُّبالة:

خَـــلِّ اهـتِـمـامَـك نـاحِـيَـهْ وخُـــذِ الحَــيــاةَ كـمـا هِـيَـهْ!

---

(١) شُعلة تُؤخذ من معظم النار.
(٢) **المراد بالجيفة:** الجسم الذي لا يلبث أن يموت حتى يجيف.
(٣) ذَنْبُ آدمَ يومَ أَكَلَ في الجنة من الشجرة التي نُهي عن أكل ثمرها.
(٤) **الأديم:** وجه الأرض. (٥) الخطاب لآدم.
(٦) **النَّفِيّ:** ما جفأتْ به القِدْرُ عند الغليان.[**قلت**: أي: ما ترمي به القِدْر من زَبَدٍ عند الغليان]. **والحُظُر:** جمع حظيرة، والمراد بها هنا: **الجنة**.
(٧) **الذَّماء:** بقية النفْس.
(٨) **استقلَّ الشيءَ:** حمله. **والصَّلصال:** الطين الحر خُلط بالرمل.
(٩) **الأوصال:** الأعضاء. (١٠) **نَغِصَ الرجُلُ نَغَصًا:** لم يَتِمَّ مُرادُه، فهو قَلِقٌ حزين.
(١١) **الوِرد:** الإشراف على الماء للاستقاء.
(١٢) **الوُقَّع:** جمع واقع، وهو الحاصل. **والأجنة:** جمع جنين، وهو المستور من كل شيء.
(١٣) **النَّكير:** الإنكار. (١٤) **البَلْبال:** الهمُّ ووَسواس الصدور.

الحَيـاةُ أيضًا

أَحَقٌّ أنَّها هيَ الدَّمُ حتَّى يَجمُد؟ وأنَّها هيَ الحرارةُ حتَّى تَبرُد؟ وأنَّها هيَ الحَركةُ حتَّى يَقْطَعَها السُّكون؟ وأنَّها هيَ الجاران[١] حتَّى تُفَرِّقَ بيْنهما المَنون؟

الحقُّ أنَّ افتِئاتَ[٢] الفَلْسَفهْ، على ضَنائِنِ[٣] اللهِ سَفَهْ، وأنَّ عِلْمَ الحياةِ عِندَ الَّذي يَهَبُها ويَسْتَرِدُّها، والَّذي يَقْصِرُها[٤] ويَمُدُّها، والَّذي يُخْلِقُها[٥] ويَستَجِدُّها، والَّذي كلُّ حيٍّ سِواهُ يَموت، وكلُّ شيءٍ ما خَلاهُ يَفوت.



(١) **الجاران**: الرُّوح والجسد.

والمتنبي يقول: =[في قصيده: أُطاعِنُ خيلًا مِن فوارسِها الدهرُ] =:

«ومُفتَرِقٌ جارانِ دارُهما العُمْرُ».

(٢) **افتأت عليه**: اختلق عليه الباطل.

(٣) **ضنائن الله** عَزَّوَجَلَّ: ما اختص ذاته بعلمه من الأمور.

(٤) **قَصَرَ الشيءَ يَقْصِرُه**: جعَلَه قصيرًا.

(٥) أي: يُبْلِيها.



الحَيَاةُ أيضًا

ماذا أقولُ في ابنةِ المَوْتِ وأُمِّه، وعِلَّةِ حُكْمِه، ونَبْعَةِ[١] سَهْمِه، ومَنْقَعَةِ[٢] سُمِّه؟

وكيفَ القَولُ في صاحِبة[٣]، ولمْ تُمَلَّكْ عن خِطْبة[٤]، ولم يُبْنَ بها[٥] عن رَغْبة، ولمْ تَبِنْ[٦] لِمَلالِ صُحْبة، أو بِغْضَةٍ[٧] بَعْدَ مَحَبَّة، تُسيءُ ولا تُفْرَك[٨]، ولولا المَوتُ لم تُتْرَك؟



(١) **النبعة**: القوس.

(٢) **منقعة السم**: الإناء الذي يوضع فيه.

(٣) **المراد بالصاحبة هنا**: الزوجة، والمقصود بها: الحياة. وقد شبَّه المؤلِّفُ الجسمَ والرُّوح في هذه الجملة وما بعدها، ثم مضى في التشبيه يبيِّن وجوهَ الخلاف.

(٤) **أي**: لم تُزوَّج للجسم بعد طلب يدها كالعادة في كل زواج.

(٥) **بنى الرجل على أهله**: زُفت إليه.

(٦) **بانت المرأة عن الرجل**: انفصلت عنه بطلاق.

(٧) **البِغضة**: شدة البغض.

(٨) **أي**: لا تُبْغَض. والفرك خاصٌّ ببِغْضة الزَّوجين.

اللِّسَـــان

مُضْغَةُ[(١)] لَحْم، في عَظْم. سَمَّاها النَّاسُ اللِّسان، وعَظَّموها لفضيلةِ البيان، فقَوَّموها بنِصْفِ الإنسان[(٢)].

عَضَلٌ نَبَتَ مِنَ الحُلْقومِ وقَناتِه، وثَبَت في أصْلِ لَهاتِه[(٣)]، ولَبِثَ في السِّجنِ ظِمْءَ[(٤)] حَياتِه، لايَتحرَّكُ منه سِوى شَبَاتِه[(٥)].

رسولُ العَقل، في النَّقل؛ وأداةُ الدِّماغ، في البَلاغ، وتَرْجمانُ النَّفْسِ في روايةِ العاطِفة، وحكايةِ الصَّحْوِ والعاصِفة.

الوَحْيُ على عَذَبَاتِه[(٦)] ظَهَر، ومِن جَنَباتِه انحَدَر، فكان أوَّلَ مَنْ سَفَرَ[(٧)]، بيْن الخالقِ وبيْن البَشَر، ثُمَّ فُجِّرَ بالحكمةِ فانفَجَر، ثمَّ عُلِّمَ الشِّعْرَ فشَعَر.

فسُبْحانَ الَّذي خلَقَه وعلَّقه، والَّذي قَيَّدَهُ وأَطلَقَه، والَّذي أَسكَتَه وأَنطَقَه؛ والَّذي يُميتُه فيَندَثِر، والَّذي هو على بَعْثِه مُقتَدِر.



(١) **المضغة**: القطعة.

(٢) [فقالوا: الإنسان شَطْران: لسانٌ وجَنان.

وقال الأعور الشَّنِّي، وتُعزى لغيره أيضًا:

ألمْ تَـرَ مِـفـتـاحَ الـفـؤادِ لِـسـانَـهُ ... إذا هـو أَبْـدَى مـا يـقـولُ مِـنَ الـفَـمِ

وكـائِـنْ تـرى مِـن صـامـتٍ لـكَ مُـعْـجِـبٍ ... زيـادتُـهُ أو نـقْـصُـه فـي الـتَّـكـلُّـمِ

لـسـانُ الـفـتـى نِـصْـفٌ ونِـصْـفٌ فـؤادُهُ ... فـلـمْ يَـبْـقَ إلَّا صـورةُ الـلَّـحـمِ والـدَّمِ]. (و)

(٣) **اللَّهاة**: اللحمة المشرفة على الحلْق في أقصى سقف الفم، أو ما بيْن منقطع أصل اللسانَ إلى منقطع القلب من أعلى الفم.

(٤) **ظِمْءُ الحياة**: من الولادة إلى وقت الموت.

(٥) **الشُّباة**: الطرَف.

(٦) **العَذَبات**: الأطراف من كل شيء.

(٧) **سَفَرَ الرَّجلُ**: خرج إلى السفر. [**قلتُ**: سَفَرَ بيْنهما: كان رسولًا بيْنهما، يبيِّن ويوضِّح].

البَيَـــان

رَحِيقُ النَّبيِّين(١)، وإبريقُ العَبْقرِيِّين(٢)، وحَظُّ المَرْزُوقين، ونَصيبُ المُوَفَّقِين، وذَرَا الجَمَال(٣)، وذُرَا الكمال(٤)، والتَّوفيقُ الَّذي لا يُنالُ بسُلطانٍ ولا مال، والخُلْدُ(٥) الَّذي يُؤْخَذُ باليمينِ وغَيْرُه يؤخَذُ بالشِّمال.

صَديقُ البَشَريَّة، وعَدُوُّ الجَبَريَّة(٦)، حادي الإنسانيَّة، السَّائِقُ بالمَطِيَّة، حتَّى تَبلُغَ الطِّيَّة(٧). يَمُرُّ بها على الخَيرِ ورُبوعِه، والبِرِّ ويَنْبوعِه، ويُقْبِلُ بها على الحقِّ وقَبيلِه(٨)، ويَعْدِلُها إلى العَدْلِ وسبيلِه؛ ويُلِمُّ بها على الجَمالِ ومَغْنَاه، وغُرَفِ لَفْظِه تحتَ حُورِ مَعْناه(٩)؛ ويَلِجُ بها على العَواطف، حَنايَا الضُّلوعِ اللَّواطِف(١٠).

وهو المَلِكُ على كلِّ اللُّغات، قد انتَظَمَ سُلطانُه أقطارَ البَلاغات، إذا انتقلَ مِن لِسانٍ إلى لسان، في أمانةٍ مِنَ الناقلِ وإحسان، أَسرَعَ في مُضَاهاتِه(١١)، وتَمَكَّنَ في جِهاتِه، تَمكُّنَ اللِّسانِ مِن لَهاتِه(١٢)؛ فكأنَّه التَّغريدُ أوِ البُغام(١٣)، أو مَنطِقُ الأنغام، تَرجِعُ له الأُمَمُ وإنْ ذهبَتْ كلُّ أُمَّةٍ بكلام.



(١) **الرحيق**: الخمر، وقد شبَّه بها المؤلِّفُ بلاغةَ الأنبياء؛ بجامع التأثير في كلٍّ، هذا في العقول، وهذه في الأرواح. [!!!]

(٢) **أي**: الإبريق الذي يَشرب منه العبقريون فيُمطِرون الناسَ روائعَ الحكمة وفصْلَ الخطاب.

(٣) **الذَّرا**: الملجأ.

(٤) **الذُّرا**: جمع ذُروة، وهي القمة.

(٥) **دوام البقاء**، والمقصود به هنا: الذِّكر الخالد.

(٦) الجبروت.

(٧) الجهة التي إليها تُطوى البلاد.

(٨) **القَبيل**: الجماعة من أقوامٍ شَتَّى.

(٩) يقال: هذا البيت تحت ساكنه فلان؛ وعلى هذا القياسِ يكون اللفظ تحت معناه.

(١٠) **اللواطف من الأضلاع**: ما دنا من الصدر.

(١١) **أي**: أسرع في مشاكلة اللسان المنقول إليه.

(١٢) **اللَّهاة**: اللحمة المشرفة على الحلْق في أقصى سقف الفم.

(١٣) **البُغام**: صوْت الظَّبْية.

المـــال

يا مالُ: الدُّنيا أنت، والنَّاسُ حيثُ كُنْت، سَحَرْتَ القُرون، وسَخِرْتَ مِن قارون، وسَعَرْتَ النَّارَ يا نِيرون[١].

تَعوَّدَ الحِقدُ أن يُحالِفَك، وأَبى الحسدُ أن يُخالِفَك، وكُتِبَ على الشَّرِّ أن يُخالِطَكَ ويؤالِفَك.

الفِتنةُ إنْ حَرَّكْتَها اتَّقَدَتْ، وإنْ تَرَكْتَها رَقَدَتْ.

والحَرْبُ وهيَ الحَرَب[٢]، تَبْعَثُها ذاتَ لَهَب، مِنكَ الرِّياحُ ومِنكَ الحَطَب.

تُزْري بالكِرام، وتُغْري بالحرام، وتُضْري[٣] بالإجرام.

فُقْدَانُكَ العُرُّ[٤] والضُّرّ، ونَكَدُ الدُّنيا على الحُرّ.

حالُكَ وحالُ النَّاسِ عَجَب! تَملِكُهم مِنَ المَهْد، ويقولون: أَصَبْنا ومَلَكْنا، وتَرِثُهُم عِندَ اللَّحْد، ويقولون: وَرَّثْنا وتَرَكْنا! مَن عاشَ قَوَّمُوه بما مَلَك، ومَن هَلَكَ تساءَلوا: كم تَرَك؟!

المحروم مَن أَوْثَقَك، والضَّائعُ مَن أَطْلَقَك، وهُمَا فَقِيران: مَن جَمَعَكَ ومَن فَرَّقَك.

كَثيرُك هَمّ، وقليلُكَ غَمّ. ومع التَّوسُّطِ الخَوفُ والطَّمَع، والحِرْصُ والجَشَع؛ حَذَرَ النَّفاد، ورَغبةً في الازدياد.

---

(١) **سعرَ النارَ:** أوقدها. **ونيرون:** قيصر من قياصرة الرومان أشعل النار في روما، وأشرف عليها من جبل ليبتهجَ بمنظر الحريق! وقد ضُرِب به المثَلُ من هذا اليومِ في القسوة والطُّغيان.

(٢) **الحرَب:** الهلاك.

(٣) **أضرى فلانًا بالشر:** أغراه به.

(٤) **العُر:** الجرَب.

المَلِكُ سُوقَةٌ إذا نَزَل إليك، والسُّوقةُ[١] مَلِكٌ إذا عَلَا عليك.

أَرْخَصْتَ الجَمال، ونَقَصْتَ الكَمال، وخَطَبْتَ لِهُجُنِ الرِّجالِ هِجانَ رَبَّاتِ الحِجَال[٢].

صُوَيْحِباتُكَ هُنَّ المُفَضَّلات، وغَيْرُهُنَّ المَتْروكاتُ المُعْضَلات[٣].

العُرْيانُ مَن ليس دُونَكَ منه سُتْرة، والمُسْتَضْعَفُ مَن ليس له منك قُدْرة.

فسُبحانَ مَن قَهَر بك الخَلْق، وقَهَرَك برِجالِ الخُلْق[٤].



(١) [السُّوقة: مَن ليس بمَلِك. قال الجوهري: «يستوي فيه الواحد والجمْع، والمؤنَّث والمذكَّر. وربما جُمِعَ على سُوَقٍ»]. (و)

(٢) هُجُنٌ: جمع هَجين، وهو اللئيم. والهِجَان من كل شيء: خِيَارُه.

(٣) عضْلُ المرأة: حبْسُها عن الزواج.

(٤) [الخلْق: الخُلُق]. (و)



الأَهْــرام

ما أنتِ يا أَهْرام؟ أَشَواهِقُ أَجْرام[١]، أَمْ شَواهِدُ إِجْرام[٢]؟ وأَوْضاحُ مَعالِم[٣]، أَمْ أَشْباحُ مَظَالِم؟ وجَلائلُ أَبْنِيَةٍ وآثار، أَمْ دَلائلُ أنانيةٍ واسْتِئْثار[٤]؟ وتمثالٌ مُنَصَّبٌ مِنَ الجَبَرِيَّة[٥]، أَمْ مِثالٌ ضاحٍ[٦] مِنَ العبقَرِيَّة؟

يا كَلِيلَ البَصَر، عن مَواضِعِ العِبَر، قليلَ البصر[٧]، بمَواقِعِ الآياتِ الكُبَر: قِفْ ناجِ الأحجارَ الدَّوارِس، وتَعَلَّمْ فإنَّ الآثارَ مَدارِس.

هذه الحجارةُ حُجُورٌ لَعِبَ عليها الأُوَل، وهذا الصُّفَّاحُ صَفائِحُ مَمالِكَ ودُوَل[٨]. وذلك الرُّكامُ[٩] مِنَ الرِّمال، غُبارُ أَحْداجٍ[١٠] وأَحْمال، ومِن كلِّ رَكْبٍ أَلَمَّ ثُمَّ مال[١١].

(١) **الأجرام**: الأجسام. **والشواهق**: المرتفعة.

(٢) يشير المؤلف إلى ما ارتكب بانوها من ظلم وإرهاق وتسخير.

(٣) **الأوضاح**: الغُرر. **والمعالم**: ما يُستدل بها على الطريق من آثار.

(٤) **استأثر بالشيء على غيره**: استبدَّ به وخَص به نفْسَه.

(٥) الجبروت.

(٦) **الضاحي هنا** بمعنى: البارز.

(٧) **البصر**: العِلم.

(٨) **الصُّفَّاح**: الحجارة العريضة. **والصفائح**: حجارة عِرَاض رِقاقٌ تُسقف بها القبور، **والمراد بها هنا**: نفْسُ القبور؛ من تسمية الكل باسم جزئه.

(٩) **الرُّكام**: المتراكم.

(١٠) **الأحداج**: جمع حِدْج، وهو الحِمل أو مركَب من مراكب النساء.

(١١) **الركب**: ركاب الخيل والإبل. **وألمَّ بالقوم**: زارهم زيارة قصيرة.

وفي أجزاء هذه الفقرة استعارة، شُبِّهتْ فيها كلُّ دولة بركب لا يلبث أن يحط حتى يشد الرحال، وشُبِّهت الرمالُ في أرض الأهرام بما يتخلَّف عن أحمال هذا الركب من غبار. ولا يخفى ما في الفقرة بأكملها من مراعاة النظير.

في هذا الحَرَمِ درَجَ عيسى صَبِيًّا(١)، ومِن هذا الهَرَمِ خَرَجَ مُوسى نبيًّا، وفي هذه الهالةِ طَلَعَ يوسفُ كالقمرِ وَضِيًّا(٢)، ووقعَتْ بيْن يَدَيْهِ الكواكِبُ جِثِيًّا(٣).

وهاهنا جَلالُ الخُلْقِ وثُبُوتُه، ونَفاذُ العقلِ وجَبروتُه، ومَطالِعُ الفَنِّ وبُيوتُه. وهاهنا تَتعلَّمُ أنَّ حُسْنَ الثَّناء، مَرْهونٌ بإحسانِ البِناء.



(١) يشير المؤلف إلى المدة التي أقامها السيد المسيح مع أمِّه وهو طفل في المكان الذي يطلق عليه الآن «**شجرة مريم**»، بمطرية الزيتون.

(٢) **الوَضيّ**: الوضيء، وهو الحسَنُ النَّظيف.

(٣) **جثيًّا**: جمع جاثٍ، وهو الجالس على ركبتيه. وهنا إشارة إلى حُلْمِ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤).

الأَمْـــــس

أَمْسِ ما أَمْسِ؟ خطوةٌ إلى الرَّمْسِ[١]، خَرَزةٌ هَوَتْ عنِ السِّلْكِ، أغلى مِن خَرَزاتِ المُلْكِ[٢].

صَحيفةٌ طُوِيَتْ والصُّحفُ قَلائل، مِن كتابِ العُمرِ الزَّائِل.

ثُلْمَةٌ[٣] في الجِدار، وَهَتْ لها الدَّار، وأنتَ غَيرُ دار[٤].

جُزءٌ من عُمُرِكَ حَضَرْتَ وَفاتَهْ، وقَبَرْتَ بيَدِكَ رُفاتَهْ[٥]، لم تُرِقْ عليه عَبْرَةً ولم تُشَيِّعْهُ بالْتِفاتَهْ.

وهو القاعِدةُ[٦] الَّتي يُبْنَى عليها العُمُر، والحَبُّ الَّذي يَنبُتُ عليه الشَّجَر، ويَخرُجُ منه الثَّمَر، وهو الخَبَرُ والأَثَر، والكُتبُ والسِّيَر، والأُسَى[٧] والعِبَر.

وهو أبو يَومِك، والولدُ سِرُّ أبيه؛ وجَدُّ غَدِك، فاجْعَلْهُ النَّبيلَ في الجُدودِ النَّبيه.



(١) **الرمس**: القبر مستويًا مع وجه الأرض.

(٢) **خَرزات الملك**: جواهر تاجه.

(٣) **الثُّلمة في الجدار**: الخلل.

(٤) [أي: وأنت في غفلة لست تدري]. (و)

(٥) **الرُّفات**: الحُطام.

(٦) **قاعدة البيت**: أساسه.

(٧) **الأُسى**: جمع أُسوة، وهي ما يتعزَّى به الحزين.

اليَــــوْم

طَلَعَتِ الشَّمْس، ونُفِضَتِ الخَمْس[١]، مِن تُرابِ أَمْس. وانصَرَفَ بَنو الأَيَّام مِنَ الجنازةِ وقد هان عليهِمُ اليَومُ الرَّاحِل، كما هان على المسافرِ مَطْوِيُّ[٢] المَراحِل. فلا العَبْرَةَ أَراقُوا، ولا على العِبْرةِ أَفاقُوا. شَغَلَتْهُم دُنياهم، وأَمِنُوا مَناياهُم، وأَلْهاهُمْ هَواهُم، فهَلَكُوا دُونَ مُناهُم.

فسُبحانَ الَّذي أَلْهى بالأَمَل، وشَغَل بالعمل، واستنهَضَ الإنسانَ لأَعباءِ اليَومِ فحَمَل. والَّذي جعل الأَمْسَ أحاديث، ومواريث، وجَعَلَ اليَومَ مَجالَ النَّاهِضِ النَّاهِز[٣]، وجَعَل غدًا يَومَ العاجِز.

فيا ابنَ الأَيَّامِ لا تَعْقِدْ مَناحةَ الأَمْس، ولا تَقْعُدْ تَحْرُسُ الرَّمْس، ولا تُفْسِدْ شُغلَ اليَوم بالإِرجاء[٤]، ولا تُلْقِ على غَدٍ كلَّ الرَّجاء.

واعمَلْ في يَومِكَ ما أَمْكَنَ العمل، وتَمَتَّعْ به ما تَسَنَّى التَّمتُّع؛ فما تَعلَمُ ما قُدَّامَك مِن عَوائِق، ولا ما دُونَك مِن بَوائِق[٥]؛ وما تَدْري: أَعْوَامٌ حياتُكَ أَمْ دقائِق؟.



(١) **الخمس**: أصابع اليد.

(٢) **طوى المرحلةَ**: قطعها.

(٣) **الناهز**: الذي يغتنم الفُرَص.

(٤) التأخير.

(٥) **البوائق**: المصائب.

الغَـــدُ

غُيُوبٌ مَحْجوبة، وحُجُبٌ مَضْرُوبة، وأَقدارٌ مَكتوبة. أعمارٌ مَوْهوبة، أو مَنْهوبة، وأرزاقٌ مَجْلوبة، أو مَسْلوبة.

بَريدُ المَلِكِ القَهَّار، مَوْعِدُه حَواشي الأسحار[١]، أو غُرَّةُ[٢] النَّهار.

حَمَلَتِ الفُجَاءاتِ نَجائِبُه[٣]، واشتَمَلَتْ على الُمستجَدَّاتِ حقَائِبُه[٤]، وبلَغَتْ مُسْتَقَرَّها مُغَرِّباتُه وجَوائِبُه[٥].

أَقْبَلَ ففَضَّ المختوم، وظَهَرَ المَكْتوم، وانفجرَ المَحْتوم، وإذا مَنَاعٍ[٦] وبَشائِر، وإذا دَوْلاتٌ[٧] ودَوائِر[٨].

واعلَمْ يا ابنَ الأيَّامِ أنَّ الغَدَ أَعَدَّه اللهُ لك خيرَ ما أَعَدَّه، ومَدَّهُ لك أَيْمَنَ[٩] ما مدَّه.

هو الشَّخصُ الثَّالث، في روايةِ الأيَّامِ والحَـوادِث[١٠]، والخَلَفُ مِن صاحِبَيْهِ والوارِث.

---

(١) **السَّحَر**: قُبيل الصبح.
(٢) **غُرَّة النهار**: أوَّلُه.
(٣) **النَّجائب**: جمع نجيبة، يقال: ناقة نجيبة، أي: كريمة الأصل.
(٤) **الحقائب: جمع حقيبة**، وهي خريطة يعلِّقها المسافر في الرحل للزاد ونحوِه.
(٥) **المغربات**: الأخبار الطارئة. **والجوائب** كذلك.
(٦) [جمع: مَنْعَاة = المنعَى : خبر الموت]. (و)
(٧) **دولات الأيام**: انقلابها من حال إلى حال.
(٨) **الدوائر**: الدواهي.
(٩) **أيمن**: مِنَ اليُمْن، وهو البركة.
(١٠) شبَّه الحياة بروايةٍ أبطالُها ثلاثة: الأمسُ واليومُ والغدُ.

وهو مَعْقِدُ[١] الآمال، ومَوعِدُ استِئْنافِ الأعمال، ومَرْمَى هِمَّةِ[٢] المال.

تَنامُ الأَنفُسُ وفي إيمانِها منه شَكّ، وفي أَيْمانها منه صَكّ[٣].

فاعمَلْ له ما استطَعْت، وانتظِرْه أَتَى أَمْ لمْ يأت. وقُلْ: سُبحانَ الَّذي أَتَى به، والَّذي هو قادرٌ على طَيِّ كتابِه، يَومَ يأتيه أَمْرُه فلا يَبْرُزُ مِن حِجابِه.



(١) مَعْقِد الآمال: موضع انعقادها.

(٢) يريد بهمة المال: فوائده.

(٣) الصك: كتاب الإقرار بالمال ونحوه، يريد: أنه واثق بقدومه.



المَسجِدُ الحَرامُ

السَّاحةُ الكُبرى، والدَّارُ اللَّمُوم(١)، والمَوسِمُ الحاشر(٢). المُنتَدى والمُؤْتَمَر، ومَثابةُ الزُّمَر(٣). إبْرَةُ المُبْحِر، ونَجْمُ المُصْحِر(٤). قِبْلَةُ البَدَويِّ في قَفْرِه، ووِجْهةُ القَرَويِّ في كَفْرِه(٥).

حَرَمُ اللهِ المُطَهَّر، وبَيْتُه العَتِيقُ المُسَتَّر(٦). الَّذي وَجَّهَ إليه الوُجوه، وفَرَضَ على عِبادِه أن يَحُجُّوه. نَظَرَتْ إليه المساجِدُ في كلِّ خَمْس(٧)، وقامَتْ إليه قيامَ الحِرْباءِ(٨) إلى الشَّمْس.

بَناهُ اللهُ بمكَّةَ على فَضاءٍ زَكِيٍّ لم يَتنفَّسْ فيه النَّاس(٩)، وخَلَا إلَّا مِن جُحْرٍ أو كِنَاس(١٠)؛ فلا الدُّنيا سحَبَتْ عليه غُرورَها، ولا النُّفوسُ نَقَّلتْ فيه شُرورَها، ولا الحياةُ أَزَارَتْهُ باطِلَها وزُورَها.

---

(١) **اللَّموم**: التي تجمع الناس.

(٢) **الحاشر**: الجامع.

(٣) **المثاب**: مجتمع الناس بعد تفرُّقهم، ومنه **المثابة**، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥). **والزُّمَر**: الأفواج المتفرِّقة بعضها في إثر بعض.

(٤) **المُبحِر**: راكب البحر. **والمُصحِر**: المسافر في الصحراء. وعادة المبحر أن يهتديَ إلى سبيله ببيت الإبرة «البوصلة»، وعادة المصحر أن يهتدي إلى غايته بالنجوم. وقد شبه المسجد الحرام بالإبرة والنَّجم؛ بجامع هداية السائر الحائر فيهما.

(٥) **الكَفر**: القرية.

(٦) **المُسَتَّر**: المغطَّى بالأستار.

(٧) **الخمس** هنا: الصلوات.

(٨) **الحِرباء**: حيوان يستقبل الشمس ويدور معها ويتلوَّن بلَوْنِها.

(٩) **الفضاء الزَّكي**: الصالح. **وتَنفُّسُ النَّاسِ**: كناية عن وجودهم.

(١٠) **الكِنَاس**: بيت الظَّبي في الشجر.

لو شاءَ اللهُ لَبَنَى بَيْتَه بمِصرَ علي نَهرٍ فَيَّاض، ووادٍ كلُّهُ قِطَعُ الرِّياض؛ ولو شاء اللهُ لاتَّخذَ بيتَه بالشَّامِ بين الجَداوِلِ المُظَلَّلَة، والرُّبَى المُكَلَّلَة[١]، والغُصونِ المُهَدَّلة، والقُطوفِ المُذَلَّلَة[٢].

ولو شاءَ اللهُ -جَلَّتْ قُدرَتُه- لَرَفَعَ بيتَه على أُنوفِ الجَبابِرة، مُلوكِ الأَعْصُرِ الغابِرة، وفَوقَ هام آلهتِهِمْ وهيَ مُمَهَّدَةٌ مُنَضَّدَة[٣]، في الغُرَفِ المُشيَّدَة، والقِبابِ المُمَرَّدَة[٤].

ولكنَّه -تعالى- نَظَر إلى أُمِّ القُرى[٥] فرأى بها ذُلًّا لِعزِّ سُلْطانِه، وافتِقارًا إلى غِناهُ وإحسانِه؛ ورأى خُشُوعًا يَستأنِسُ به الإيمان، وتَجَرُّدًا تَسكُنُ إليه العِبادة، ورأى انفِرادًا يَجري في معنَى التَّوحيد، فأَمَرَ إبراهيمَ حَوَارِيَّه[٦] ونبيَّه، وخَليلَه وصَفِيَّه، أن يَرفَعَ بذلك الوادي رُكْنَ بَنِيَّتِه[٧]، ويَنْصِبَ بيْن شِعَابِه[٨] مَنارَ وَحْدانِيَّتِه.

بُنيانٌ قامَ بالضَّعْفِ والقوَّة[٩]، ونَهَضَ على كاهِلِ الكُهولةِ وساعِدِ الفُتُوَّة، واشتَرَكَتْ فيه الأُبُوَّةُ والبُنُوَّة، فكنتَ ترى إبراهيمَ يُزاوِل[١٠]، وإسماعيلَ بيْن يدَيْهِ يُناوِل[١١]، حتَّى بَنَيَا حقًّا أَعْيَا المَعاوِل، وعَجَزَ عنه الَّذي دَمَّرَ تَدْمُرَ وأَبْلَى بابِل[١٢].

---

(١) **الرُّبَى**: الأراضي المرتفعة. **والمكلَّلة**: المتوَّجَة. **والمراد**: أنها متوَّجَةٌ بالزهر والأعشاب.

(٢) **القطوف**: الثمار. **والمذلَّلة**: المدلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان: ١٤).

(٣) **الهام**: الرؤوس. **والمنضدة**: المتراصفة. **والمراد بالآلهة هنا**: الأصنام.

(٤) **الممرَّدة**: الطويلة الملساء.

(٥) مكة المكرمة.

(٦) **الحواريّ**: الرسول.

(٧) **البَنِيَّة**: الكعبة.

(٨) **الشِّعاب**: الطُّرُق.

(٩) **ضَعْفُ الكهولةِ وقوَّةُ الشباب** الماثلان في إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما الصلاةُ والسلام.

(١٠) **زاوَلَ الشَّيءَ**: عالجه.

(١١) [راجع ـ رعاك الله ـ «**صحيح البخاري**»، كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث رقْم [٣٣٦٤] وما بعده].(و)

(١٢) **تدمر**: قلعة مشهورة. **وبابل**: بلد بالعراق يُنسب إليه السِّحرُ والخمر. والذي أهلك تدمرَ وأبلى بابلَ هو الدهر.

فانظُر إلى صُفَّاحِ الباطلِ كيف باد، وإلى آجُرِّ[١] الحقِّ كيف أَفنَى الآباد؛ وتأمَّلْ عجائِبَ صُنْعِ النِّيَّة، وكيف ظَفِرَتْ لَبِنَةُ[٢] التَّوحيدِ بصَخْرةِ الوَثَنِيَّة.

بُنِيَ البيتُ وإذا الجَلالُ حُجُبُهُ وأستارُه، والحقُّ حائِطُه وجِدارُه، والتَّوحيدُ مَظهَرُه ومَنارُه، والنَّبيُّون بُناتُه وعُمَّارُه[٣]، واللهُ عَزَّوَجَلَّ ربُّه وجارُه.

اطَّلعَتْ بِهِ (صَلاح)[٤]، اطِّلاعَ المِشكاةِ[٥] بالمِصباح، فزَهَرَ فأضاءَ البَراح[٦]، وانتَظَمَ الهِضَابَ والبِطَاح، أَضْوأَ مِنَ الشَّمسِ ذُبالَة[٧]، وأَبْهَرَ مِنَ القمرِ هالَة، في مَنازِلِ الشَّرفِ والجَلالة.

قد حازَ اللهُ له مِن نَباهةِ الذِّكرِ، وفَخامةِ الشَّأْنِ ما لم يَحُزْ لقَديمٍ مِن مَعالِمِ الحقِّ ولا حديث؛ بِرُّ العِبادةِ، وفضيلةُ الحَجِّ، وشرَفُ الباني، ورَوْعةُ العِتْقِ، وجَلالةُ التَّاريخِ.

يقولُ الغُوَاة: لو كانتِ الكعبةُ من ذهبٍ أو فِضَّة؟ ويقولون: لو كانت كبِيَعِ[٨] النَّصارَى في عَواصِمِ الغَرْبِ: رِفْعةَ بناءٍ، ودِيباجةَ فنٍّ، ووَشْيَ زُخْرُفٍ؟!

وأقولُ للغُواة: لو تُرِكَتِ الكعبةُ على فِطْرتِها الأُولَى، فلمْ يُطَوَّلْ بناؤُها، ولم تُزَيَّنْ بالذَّهبِ أجزاؤُها، ولم تَتعدَّدْ في الزُّخرُفِ أشياؤُها - لكانَ بعبقرِيَّتِها أَلْيَق، وبِرُوحانِيَّتِها أَشْبَهَ وأَخْلَق، وفي تقديرِ قُدُسِها[٩] غايةً ونهاية[١٠].

(١) **الصُفَّاح**: الحجر العريض. **والآجُرُّ**: ما يُبنى به، وهو المعروف (بالطوب).

(٢) **اللبنة**: ما يُضرب من الطين للبناء.

(٣) **العُمَّار**: السُّكَّان.

(٤) لقب من ألقاب مكةَ المكرمة.

(٥) **المشكاة**: الطاقة.

(٦) [**البَراح**: المتَّسَع من الأرض، لا زرع فيه ولا عُمْران]. (و)

(٧) [**الذُّبالة**: الفَتِيلة التي تُسْرَج]. (و)

(٨) [المفرد «**بيعَة**»، بكسر الباء، وهي: الكنيسة]. (و)

(٩) **القدس**: الطُّهر.

(١٠) [**قلت**: وهكذا يراها اللبيب المحِب. وقد قال الإمام أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُٱللَّهُ في «سراج المريدين»: «والذي يعلم خائنة الأعيُن وما تخفي الصدور، إنها متجرِّدة أجمَلُ منها في تلك الحال مَكْسُوَّة. وما شبَّهْتُها =

الشَّهــادة

قَصيدةٌ عُلْويَّةُ الرَّوِيّ، مَطْلَعُها اللهُ ومَقْطَعُها النَّبيّ[(١)].

كَلِمةٌ هيَ الدِّين، وهيَ كُنْهُ[(٢)] اليقين، وهيَ الحقُّ المُبين.

أَرْسَلَها الأَذانُ سَمْحةً سَهْلة، فقَرَّتْ في الأَذهانِ أَوَّلَ وَهْلَة.

ولِمَ لا؟ وهيَ الحقيقةُ العُريانة[(٣)]، والصُّبحُ الَّذي عَرَضَ عِيانَه[(٤)]، فكَفَى العُيونَ بُرهانَه وبَيانَه.

كانت شِعارَ[(٥)] الدَّاخِلِ في الدِّينِ الجديد، وجَوازَ[(٦)] الخارجِ إلى أقطار التَّوحيد، ولم تَزَلْ مُقدِّمةَ الكِتاب، وفاتِحةَ الخِطاب، ومِفتاحَ الباب، وحافَةَ الغاب[(٧)].

إِذْنٌ سَهْل، وحِجابٌ سَمْح، وساحةُ فَضْلٍ لا تَحجُبُ مُستأذِنًا، ولا تَتصعَّبُ على مُعالِج، ولا تَضِيقُ بنَزِيل.

=في فضل جَمالِها مُتجرِّدةً على جمالها مَكسوَّةً إلَّا بما قال عليُّ بن العبَّاس (هو ابن الرومي، المتوفَّى ٢٨٣هـ، والبيت في «ديوانه»(٢/ ٥٩٥) رقْم(١٥٤) بتحقيق الدكتور حسين نصار):

وأَحْسَنُ مِن عِقْدِ العَقِيلةِ جِيدُها ... وأَحسَنُ مِن سِرْبالِها المُتجَرِّدُ

ولقد كنت أُلْصِقُ خدِّي بجُدْرانِها مع قِضَّتِها (= يبس الحصى)؛ وكأنها خدُّ جاريةٍ زهراءَ»].(و)

(١) [**المقطع من كل شيء**: آخِره، كالعُقْب]. (و)

(٢) **الكُنه**: الأصل والغاية.

(٣) [أي: المجرَّدة التي لا تحتاج -عند ذوي الفِطَر والعقولِ السليمة- إلى براهينَ تؤيِّدها؛ لوُضوحها، وقوَّتِها في ذاتها.

وليس يَصِحُّ في الأفهام شَيْءٌ ... إذا احتاج النَّهارُ إلى دليلِ

وهذا البيت مِن أحاسِنِ شِعر أبي الطيِّب]. (و)

(٤) **العِيان**: الشخص.

(٥) **الشعار**: ما يعرف عند المولَّدين «بسر الليل».

(٦) **الجواز**: صك المسافر.

(٧) **الحافة**: الجانب، **والمراد بالغاب هنا**: مأوى الحق والتَّوحيد.



ومِن عَبقريَّةِ الشَّهادةِ ـ أماتَنا اللهُ وإيَّاكَ عليها ـ أنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللهِ طالما أَوْقعَ في نُفوسِ الجماعاتِ أنَّها أَفضَلُ عمَلِ العبدِ عِندَ ربِّه، وأنَّها رُبَّما قامتْ مَقامَ الأَداءِ عن سائرِ الفرائِض[١]، حتَّى فَرَّط المُفَرِّطون، وهُمْ عليها يَتَّكِلون، وتَكَثَّرَ مِنَ الخَطايا المُذْنِبون، وهُمْ يَرْجُون عِندَها النَّجاةَ ويأْمُلُون.

إذا حَضَرَ المَوْتُ هَوَّنَتْ لِقاءَه، وقَلَّلَتْ هَوْلَ ما وراءَه.

وجعَلَها الخائفُ أَمْنَه ورجاءَه، والقليلُ العَزاءِ أُسْوَتَهُ[٢] وعَزاءَه، وقدَّمَها المُقِلُّ[٣] بيْن يدَيْهِ عمَلًا يَرْجو جَزاءَه.



(١) [وهذا ضلال بعيد، وما هو بالظَّنِّ الحسَن؛ إذ الإيمان قولٌ واعتقاد وعمَل.

نعم، مَن قال: (لا إله إلا اللهُ) مخلِصًا من قلبه دخل الجنة، بَيْدَ أن الأعمال هي أسنان مِفتاح الجنة.

وقد قيل لوَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أليس (لا إله إلا اللهُ) مِفتاح الجنة؟ قال: «**بلى، ولكن ليس مِفتاحٌ إلا له أسنان، فإن جِئتَ بمِفتاح له أسنانٌ فُتح لك، وإلا لم يُفتح لك**». ذكره البخاري تعليقًا في أول كتاب الجنائز من «**صحيحه**»، ووصله في «**التاريخ**»، وكذا وصله أبو نُعَيم في «**حِلْيَة الأولياء**».

ويُروى عن الحسَن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «**ليس الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكنْ ما وقر في القلب وصدَّقته الأعمال، مَن قال حسنًا وعَمِلَ غيرَ صالح ردَّه الله على قوله، ومن قال حسنًا وعَمِلَ صالحًا رفَعَه العمل؛ ذلك بأن الله تعالى قال:** ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر:١٠).

وفي رواية: «**إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن أقوامًا خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا: نُحسِنُ الظنَّ بالله! وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**»] (و).

(٢) **الأسوة**: ما يتعزى به الحزين.

(٣) قليل الحسنات والصالحات.

الصَّــــلاة

(أ) الطَّهارة:

كمالُ أدبِ الصلاة، وتَمامُ الخِدْمةِ والتَّعظيمِ لله، عِندَ تَوَجُّهِ العبدِ إلى مَوْلاه.
شُرِعَتْ وَسِيلة، وسُنَّةً جميلة، وصالحةً وفضيلة.

حُكْمُ حِكْمَتُهُ لا تَتِم، حتَّى يَنتظِمَ النَّفْسَ والجِسْم، فإنْ جَمَعْتَ نَقاءَ الباطِنِ والظَّاهِر؛ فأنت الَّذي صلَّى له(١) وهو طاهِر. ولو قُصِرَتِ الطَّهارةُ على وُجوهٍ تُغْسَل، وأَرساغٍ(٢) تُبَلَّل، وثيابٍ تُنَظَّفُ وتُـجَمَّل؛ لكان المَيْتُ أَطْهَرَ مِنَ الحَيّ(٣).

فيا أصحابَ الوُضوءِ:

غَسَلْتُمُ الجَوارح(٤)، فهلْ غَسَلْتُمُ الجَوانِح؟ ورَحَضْتُمُ(٥) الأَطراف، فهل رَحَضْتُمُ الأجواف؟ طَهَّرْتُمُ الرَّاحَ مِنَ الأنجاس(٦)، فهلْ طَهَّرْتُموها مِن أشياءِ النَّاس؟ ونَظَّفْتُمْ مِنَ الطُّرُقِ الأَقدام(٧)، فهل نظَّفْتُموها مِن سُبُلِ الحرام، ومَسالِكِ الإجرام؟ وتلكَ الوُجوهُ المَمْسوحةُ بالماء، هل تَرَقْرَقَ فيها الحَياء؟ وهل نُقِّيَتْ مِنْ وَضَرِ(٨) الرِّياء؟!

(ب) الصَّلاة:

لو لم تَكُنْ رأسَ العِبادات، لَعُدَّتْ مِن صالحةِ العادات؛

---

(١) **الهاء** ضمير الشأن.
(٢) **جمع رُسغ**: وهو المَفْصِل ما بين الساعد والكفِّ.
(٣) لأن غسل الميت تامٌّ، وكفَنُه من ثياب جُدُد.
(٤) جمع جارحة، وهي العضو المكتسِب من أعضاء الإنسان.
(٥) غسلتم.
(٦) **الراح**: جمع راحة، وهي الكف.
(٧) **المراد بالطرق هنا**: ما يَعلق بالقدم من أقذارها.
(٨) **الوضَر**: الوسخ.



رياضةُ أبدان، وطَهارةُ أَرْدان[(١)]، وتَهذيبُ وِجْدان، وشَتَّى فَضائِلَ يَشِبُّ عليها الجَوارِي والوِلْدان.

أصحابُها هُمُ الصَّابِرون، والمُثابِرون، وعلى الواجبِ هُمُ القادِرون.

عَوَّدَتْهُمُ البُكورَ وهو مِفتاحُ بابِ الرِّزق، وخَيرُ ما يُعالِجُ به العبدُ مُناجاةُ الرَّازِق، وأَفضَلُ ما يَرُودُ به المخلوقُ[(٢)] التَّوجُّهُ إلى الخالق.

ولهُم إليها بعد البُكورِ رَواح، فإذا هيَ تَصْرِفُهم عن دَواعي اللَّيلِ ومُغْرياتِه، وتَعصِمُهُم فيه مِن عَوادي الفَراغِ ومُغوِياتِه، واللَّيلُ خَلَواتٌ وشَهَوات، وبَيتُ الغَوايات[(٣)].

وتَجزِئةُ الوقتِ مع الصَّلاةِ مَلْحوظة، وقِيمتُه عِندَ الَّذين يُقِيمونها محفوظة، عَوَّدَتْهم أنْ يَذْكُروه، ويُقَدِّروه، وأنْ يَسُوسُوه في أعمالِهم ويُدَبِّروه. والوقتُ مِيزان المَصالح، ومِلاكُ الأُمور، ودُولابُ[(٤)] الأَعمال.

انظُرْ جَلالَ الجُمَع، وتأمَّلْ أثَرَها في المجتمَع، وكيف ساوَتِ العِلْيَةَ بالزَّمَع[(٥)]؟

مَسَّتِ الأرضَ الجِباه، فالنَّاسُ أَكْفاءٌ وأَشْباه، الرَّعِيَّةُ والوُلاة، شَرَعٌ[(٦)] في عَتَبةِ الله.

خَرَّ الجَمْعُ للمَناخِر، فالصَّفُّ الأَوَّلُ كالآخِر؛ لم يَرفَعِ المُتصدِّرَ تَصدُّرُه، ولم يَضَعِ المُتأخِّرَ تأخُّرُه.



---

(١) **الرَّدَن**: الغَزْل أو الخَز، والجمع: أردان. **والمراد** بها هنا: الثياب.

(٢) [**يَرُود**: يطلب. يقال: راد الشَّيءَ يَرُودُه رَوْدًا ورِيادًا، فهو رائد]. (و)

(٣) [**الغَواية**: بفتح الغَين لا كسرِها]. (و)

(٤) **الدُّولاب**: الآلة الدائرة.

(٥) **الزَّمَع**: الرعاع.

(٦) أي: سواء.

[**قلت**: يقال: الناس في هذا الأمر شَرْعٌ وشَرَعٌ، أي: سواءٌ. وذا اللفظُ التثنيةُ والجمْع والمذكر والمؤنث فيه سواء]. (و)

الصَّـــوْم

حِرْمانٌ مشروع، وتأديبٌ بالجوع، وخُشوعٌ للهِ وخُضوع.

لكلِّ فريضةٍ حِكْمة، وهذا الحُكْمُ ظاهِرُه العَذابُ وباطِنُه الرَّحمة.

يَستثيرُ الشَّفَقة، ويَحُضُّ على الصَّدَقة.

يَكْسِرُ الكِبْر، ويُعَلِّمُ الصَّبر، ويَسُنُّ خِلال البِر.

حتَّى إذا جاع مَن أَلِفَ الشِّبَع، وحُرِمَ المُتْرَفُ أسبابَ المُتَع؛ عَرَفَ الحِرمانَ كيف يَقَع، والجُوعَ كيف أَلَمُهُ إذا لَذَع[1].



(١) [انظر ـ أسعدك الله ـ مقالةً فائقة عن فلسفة الصيام، للأديب الأكبر أبي السامي مصطفى صادق الرافعي ـ رحمة الله عليه ـ، في الجزء الثاني من معلمته النفيسة «**وحي القلم**»، بعنوان: «**شهر للثورة. فلسفة الصيام**»].(و)

الزَّكـــاة

حِزْبُ[١] الاشتراكيَّة، وحَرْبُ البُلْشُفِيَّة[٢].

أيُّها الناسُ:

أَمَرَ اللهُ فصَلَّيْتُم، ونَمَا المالُ فما زكَّيْتُم!

فَرَّقْتُم بيْن الخَمْسِ[٣] وكلُّها حُكْمُ الواحد، فلِكُلِّ ألْفِ مُصَلٍّ مُزَكٍّ واحد!

اسْتَسْهَلْتُم فأَخَذْتُم، واستَصْعَبْتُم فنبَذْتُم. فلو دَخَلَ المالُ في الصَّلاة، لأَقْفَرَتْ منكم مساجدُ الله! ولو غُرِّم أحدُكم على الشَّهادة، لكان به عن نُطْقِها زَهادة[٤]!

أَعَلِمْتُم أنَّ الزَّكاةَ قُرُوض[٥]؟ وأنَّها وِقاءُ الأعراضِ والعُروض[٦]؟ وأنَّها ليستْ بالعبَثِ المفروض؟

هي مالُ الفقيرِ خَلَسْتُموه[٧]، ورِزْقُ المَحرومِ حَبَسْتُموه، وحقُّ العاجزِ في الحياةِ بَخَسْتُموه، وحُكْمُ اللهِ الَّذي أَغْناكُم قد دُسْتُموه.

تُقْرِضون[٨] الوُلاة، ولا تُقْرِضون الله، وتُنْفِقون تَمَلُّقًا لأهْلِ الجاه، ولا تُنفِقون تَعلُّقًا بالنَّجاة.

---

(١) **الحزب**: النصير.

(٢) [**البلشفية**: طليعة الشيوعية العفنة «=شيوعية لينين»، وهي ـ كما الاشتراكيةِ ـ مناهضة للإسلام. والثانية بمعناها الاصطلاحي وهْمٌ كبير.

وانظر ـ ألهمك الله الصوابَ، وأراك المحابَّ ـ تعليقَنا على الفقرة رقْم (٤٤) من «**كلمة وكُليمة**» للرافعي].(و)

(٣) **المراد بالخَمْس**: أركان الإسلام.

(٤) **زهد فيه زهادة**: رغِب عنه.

(٥) **القروض**: جمع قرض، وهو ما أسلفْتَ من إساءة أو إحسان.

(٦) **الوِقاء**: الدرع. **والعُروض**: الأمتعة. **والأعراض**: مواضع المدح والذم من الإنسان.

(٧) **خَلَسَ الشيءَ**: أخذه مخاتلةً.

(٨) **أقرضه**: أعطاه قرضًا.

الحَـــجُّ

مَوكِبُ الإسلامِ ومَظْهَرُه، ولُبابُ حَسَبِه وجَوْهَرُه، ومَوْسِمُه الحرامُ أَشْهُرُه.

مِهْرَجانُه العظيم، وعُرْسُهُ الفَخيم، ونَدِيُّه(١) الكريم، والنَّظْمُ الَّذي قَرَنَ فيه الدُّنيا إلى دِينِه القَويم، فجَعَلَه لها صلاحًا وعِمارة، ومَلأَها بيُمْنِه نَماءً ويَسارة(٢)، وأفاض بَرَكاتِه على التِّجارة؛ وسَخَّرها لخِدْمتِه، وإظهارِ دَعْوتِه، وجَمْعِ كَلِمَتِه، وتَوْثيقِ عُرْوَتِه.

فإذا أظَلَّتْ أيَّامُ الحجِّ المُبارَكاتُ نَظَرْتَ إلى البلادِ فرأيْتَ أسواقًا ماجَتْ، ومَتاجِرَ راجَتْ، ومَطايا مِن مَرابِضِها اهتاجَتْ؛ ورأيْتَ الحِجازَ مُهْتَزَّ المَناكِب، يَمُوجُ بالمَواكِب، مُفتَرَّ المَباسِم(٣)، في وُجوهِ المَواسِم. أخلَفَهُ الغَيْثُ(٤) فمُطِرَ الذَّهَب، ويَبِسَ الزَّرعُ فطَعِمَ الرُّطَب.

أَزْوادٌ(٥) تُعَدّ، ورِحالٌ تُشَدّ، وشُرُعٌ تُمَدّ، وحاجاتٌ تَنشأُ وتَستجِدّ، وأُمَمٌ أَتَوْا مِن نَواحي البلاد، يَضَعون التُّحَفَ المَجْلوبة، ويأخذون الأجرَ والمَثُوبة.

فيا أيُّها المُعتزِمُ حجَّ البَيتِ، المُشَمِّرُ لأداءِ الفريضةِ: لقد أَطَعْتَ، فهلِ استَطَعْتَ؟ وأَجَبْتَ، فهلْ تأَهَّبْتَ؟

وهل عَلِمْتَ أنَّ الإسلامَ شِرْعةُ السَّماحة، وأنَّ رَبَّ البيتِ واسِعُ السَّاحة؟

---

(١) **النَّدِيّ**: المجلس.

(٢) **اليسارة**: الغِنَى.

(٣) [يقال: **افترَّ فلان**، إذا ابتسم وبدَتْ أسنانُه. **وافترَّ البرقُ**: تلألأَ].(و)

(٤) **الغيث**: المطر. **وأخلفه**: لم ينزل به.

(٥) جمع **زاد**، وهو طعام السَّفر.

يُعْفِي المريضَ حتَّى يُعافَى، ويُقِيلُ المُعْدِمَ حتَّى يَجِد، ولا يؤاخِذُ أخا الدَّيْنِ حتَّى يَقضِيَ دَيْنَه، ولا يُنْكِرُ على الخائفِ القَرارَ[١] حتَّى تَأمَنَ السَّبيل، مِن وَباءٍ مُهْتاج، أو لُصوصٍ قد أَخَذوا الفِجَاج[٢]، أو حُكومةٍ جائرةٍ تَبْتَزُّ الحُجَّاج؟

كُبْرَى الكبائرِ أنْ تَلْقَى اللهَ في بيتِه وبيْن وَفْدِه بمالٍ خَلَسْتَهُ[٣] مِن أَحَدِ اثنَينِ يُحِبُّهما اللهُ حُبًّا جَمًّا:

اليتيم، وأنت تَعْلَمُ أنَّ مالَه نار، وأنَّه نَحْسُ الدِّرهمِ نُحاسِيُّ الدِّينار[٤].

والفقير، وقد فَرَضَ اللهُ له في مالِكَ حِصَّةً سَمَّاها الزَّكاة، فتغابَيْتَ يا مُخادِعَ الله، وخَرَجْتَ بها تَحُجُّ للتَّظاهُرِ والمُباهاة!

وهل عَلِمْتَ أنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ منك مالًا ونَفَقَةُ المُطَلَّقة، مِن مَطْلٍ مُعَلَّقة، وذُو القُرْبَى وراءَك جائع، والوَلَدُ طَرِيدُ المَدارسِ ضائِع، وتجارتُكَ مُخْتَلَّة، وأمانتُك مُعْتَلَّة، وجارُك الضَّعيفُ يَضِجُّ مِن حَيْفِك، وخَصِيمُك الأَعْزَلُ يَشْكو سَطْوةَ سَيْفِك[٥].

فإنْ لم يكنْ شيْءٌ مِن ذلك أو ممَّا إليه، فَسِرْ على اسمِ الله، وحُجَّ بَيْتَ الله، وارجعْ برِضْوانٍ مِنَ الله.



(١) المكث في داره.

(٢) **الفِجاج**: الطرق الواسعة بين الجبال.

(٣) [**قلت**: قال أبو الشمقمق، واسمه مروان بن محمد:

إذا حجـجتَ بمـالٍ أصْلـُه دَنِـسٌ	**فما حججتَ ولكنْ حَجَّتِ العِيرُ**
لا يَـقْـبَـلُ اللهُ إلَّا كـلَّ طَيِّبةٍ	**ما كلُّ مَن حجَّ بيتَ اللهِ مَبْرورُ]**

(٤) **المراد بالدرهم النحس**: أنه شؤم على كل مَنِ اغتصبه. **والدينار النحاس**: الذي لا قيمة له؛ لأنه حرام، والحرام لا يدوم.

(٥) [**قلت**: مثل هذا إذا لم يأتِ بما يُبطِل حجَّه فحجُّه صحيح مع بقاء إثم تضييعه مَن يَقوت وهَضْمِه لحقوق العباد. والله أعلم].

خَطِيبُ المَساجِد

يا مُرشِدَ العابد، ورادَّ الهوَى الشَّارِد: أَعَلِمْتَ أيَّ مَقامٍ أُقِمْتَ، ولأيِّ بلاءٍ قُدِّمْتَ[١]؟

إنَّما نُدِبْتَ للوَعظِ والإرشاد، وتعليمِ العِلْيةِ والسَّواد، أدبَ المَعاشِ والمَعاد[٢]، وخَلَفْتَ الخُلفاءَ على تلك الأعواد[٣].

الآذانُ لك مُرْهَفة، والأذهانُ إليك مُتَشوِّفة، فماذا عِندَكَ للأتقياء، مِنَ الأغنياء، ولكُلِّ مُمَوَّل، في الصَّفِّ الأوَّل، مِن إشارةٍ إلى الذَّهبِ المُدَّخَر، والقريبِ الضَّجِر، والوارِثِ المُنتظِر، وإلى الخيرِ وجَمعيَّاتِه، والبرِّ وقَضيَّاتِه؟

وماذا أَعدَدْتَ للتَّاجِر، مِنَ الوَعظِ الزَّاجِر، تَحُضُّه فيه على الأمانة، وتُحَذِّرُه عَواقِبَ الخيانة، وتُوصِيهِ بسُمعتِه ضَنًّا وصِيانة؟

أوْ ما الَّذي بَذَلْتَ للعامِلِ والصَّانِع، مِن لفظٍ رائعٍ ووعْظٍ جامِع، في السُّلوكِ الحَسَنِ والدَّعوةِ إليه، وإتقانِ العمل والحضِّ عليه؟

وهل ذكَرْتَ للعامَّةِ أنَّ ضَرْبَ النِّسْوة، ضَرْبٌ مِنَ القَسوة؟[٤] وأنَّ البَغْيَ بالطَّلاق، يَمْقُتُه الدِّينُ والأخلاق؟ وأنَّ الطِّفلَ مِن حَقِّه أنْ يُهَذَّب، لا أن يُضْرَبَ ويُعَذَّب، وأنْ

(١) [**البلاء هنا**: التكليف والخَطْبُ العظيم]. (و)

(٢) **المَعاد**: الآخرة.

(٣) **الأعواد**: الأخشاب، والمراد بها هنا: المنابر.

(٤) [**قلت**: انظر ـ بارك الرحمن بك، ودفع الأسواء عنك ـ الفقرة رقْم [٢١] من «**نداء للجنس اللطيف**» للسيد العلامة محمد رشيد رضا، مع تعليقنا عليه المسمى «**الروض الوريف**»].

يُكْسَبَ عليه، لا أن يَكْسِبَ هو على أبَوَيْه؟[١] وأنَّ التَّيْسَ لو عَقَلَ ما اتَّخَذَ نَعجتَيْنِ، فكيف يَتزوَّجُ الفقيرُ العاقلُ اثنتَيْنِ؟؟

أَمْ أنتَ كما زَعَموا بَبَّغَاءٌ لَمْ تحفَظْ غيرَ صَوْت، تُرَدِّدُه إلى المَوْت؛ كَلِماتٌ محفوظة، في كلِّ مكتوبةٍ مَلْفوظة؛ سَيْفٌ مِن خَشَب[٢]، وخُطوبٌ في صورة خُطَب؟!



(١) المراد بهذه الجملة أن الآباء عليهم أن يَعملوا حتى يُمهِّدوا لأبنائهم سبيلَ العيش والحياة، لا أن ينتظروا السعيَ من أبنائهم وهم أطفال.

(٢) [قلت: يشير إلى مُحْدَثة كانت منتشرة في كثير من الأقطار الإسلامية، ذلك أن الخطيب كان يخطب وفي يده سيف؛ إشارة إلى أن ذلك البلد فُتح به! ثم لما طال الأمد استبدلوا بالمعدن الخشبَ! وقد أنكر هذي البدعةَ كثيرٌ من الفقهاء البُصَراء، ونَصُّوا على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أخذ بيده أثناء الخطبة سيفًا قطُّ.
هذا، وقد قال الرافعي في بعض ما كتب: «ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواح المدافع، لا رجالٌ في أيديهم سيوفٌ من خشب».
واقرأ له مقالة فائقة بعنوان «قصة الأيدي المتوضئة»، مثبتة هي في الجزء الثاني من «وحي القلم»].

الطَّـــلاق

أَزْمةٌ تَمنَعُ أزمات، ومُلِمَّةٌ تدفعُ مُلِمَّات.

دواءٌ ساءَ استِعمالُه فصارَ هو الدَّاء، ودِرْعٌ للتَّوَقِّي عادتْ آلةَ اعتِداء.

نَظْمٌ على غيرِ أصُولِه مُتَّبَع، عَبِثَ به الجَهْلُ حتَّى انقطَع، وضاعَتْ على الشارع حِكمةُ ما شَرَع.

حلالٌ عليه بَشاعةُ الحرام، وحقٌّ يَشْرَهُ[١] إليه اللِّئام، ويُكْرَهُ عليه الكِرام.

مَنَعَ اللهُ به الظُّلْم، رأفةً بكم ورحمة؛ فما بالُكُم قَلَبْتُمُ الحُكْم، وعَكَسْتُمُ الحِكْمة، تَخْتَلِقُون الرِّيَب، وتُطَلِّقون على غضب، وتُسَرِّحُون بلا سبب؟!

أيُّها النَّاسُ:

إنْ كان الكِتابُ تَسَمَّح[٢]، فإنَّ الحديثَ قد لَمَّح[٣].

هَبُوا أنَّ الشَّارِعَ أَطْلَقَ الطَّلاق، اتِّكالًا على الدِّين والأخلاق، أليس المَوقِفُ مَوقِفَ حَذَر، والمسألةُ فيها نَظَر؟

أَمْرٌ تَبِعاتُه على ضَمائِرِكُم، وسُوءُ استِعمالِه على سَرائِرِكُم، وفضيحةُ بعضِكم به واقِعةٌ على سائِرِكُم[٤]!

---

(١) **شَرِهَ إلى الطعام وعليه**: اشتد حِرْصُه عليه.

(٢) تساهل.

(٣) يشير إلى الحديث الشريف: «**إنَّ أَبْغَضَ الحلالِ عِندَ اللهِ الطَّلاقُ**».

[**قلت**: لا يصحُّ هذا الحديثُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ].

(٤) إذا انتشرت عادةُ الطلاق في أُمَّة فليست الفضيحةُ واقعةً على رؤوس المطلِّقينَ وحدَهم، ولكن الأُمَّة مأخوذةٌ بها جميعًا، والسمعة السيئة لا تعرف مذنبًا من بريء.

أولئك أُمَمُ النَّصرانيَّة، أصحابُ الحضارةِ الحاضرة، حَرَّمَ الطَّلاقَ دِينُهم، ثُمَّ حلَّلَتْهُ قوانينُهم، ولكنْ في دائرةِ الحق، ووُجوهِ الرِّفق، وبإشرافِ قُضاةٍ يَحْمونَ نُظُمَ الزَّواجِ مِن عَبَثِ الخاصَّة، وجَهالةِ العامَّة[١].



(١) [قلت: انظر ـ هُديت ـ الكتاب الذي دللناك عليه في الفصل قبله، الفِقرة رقْم [٤٨]، وما بعدها.
وأما حَجر الطلاق إلا بإشراف قضاة فأمر مقيت مستهجن، وتعطيل للمصلحة، والناس –مذ كان إسلام– على نقيضه. وقد آذنَّاك أن ديننا متبوع لا تابع، ومسموع لا سامع].

البَحرُ الأَبْيَضُ المُتَوسِّطُ[١]

سيِّدُ الماء، ومَلِكُ الدَّأْماء[٢]، مَهْدُ العِلْيَةِ القُدماء.

دَرَجَتِ الحكمةُ مِن لُجَجِه[٣]، وخَرَجَتِ العَبقريَّةُ مِن ثَبَجِه[٤]، ونَشأَتْ بناتُ الشِّعرِ في جُزُرِه وخُلُجِه.

بَدَتِ الحقيقةُ للوجودِ مِن يَبَسِه ومائِه، وجَرَّبَ ناهِضُ الخيالِ[٥] جَناحَيْهِ بيْن أرضِهِ وسَمائِه.

العُلومُ نزلَتْ مُهودَها مِن ثَراه، والفنونُ رَبيَتْ في حِجَالِ رُباه[٦]، والفلسفةُ تَرَعْرَعَتْ في ظِلِّه وذَراه[٧].



(١) [قلت: لأمير الشعراء قصيدة في «**البحر الأبيض**»، تراها في الجزء الرابع من «**الشوقيات**»، الذي نشره الأستاذ محمد سعيد العريان].

(٢) **الدَّأْماء**: البحر، والمراد به هنا: المياه.

(٣) **اللُّجَج**: جمع لُجَّة، وهي مُعْظَمَ الماء.

(٤) **الثَّبَج من كل شيء**: وسَطه ومُعْظَمه.

(٥) **النَّاهض**: فرخ الطائر إذا نشر جَناحيه وتهيَّأ للطيران.

(٦) **ربيت الفنون**: أي: نشأت ونَمَتْ. **والحجال**: الخدور. **والرُّبَى**: جمع رَبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٧) **الذَّرا**: الملجأ.

(بَنتاءورُ) وُلِدَ على عِبرْه[١]، و(هوميرُ) مُهِّدَ بين سَحْرِه ونَحْرِه[٢]، ونَحَتَ الإلياذةَ[٣] مِن صخرِه، و(هيرودوتُ)[٤] دَوَّنَ مُتونَهُ على ظَهرِه، و(الإسكَندرُ) انتَهى إليه بِفَتحِه ونَصْرِه.

الموسيقى دَبَّتْ في أحْناءِ[٥] هَياكِلِه، وشَبَّتْ في أَفْياءِ خَمائِلِه[٦]، ثمَّ لمْ يَزَلْ بها تَرسُّلُ[٧] الرُّهبان، وتَرَتُّلُ الأحبارِ والكُهَّان، حتَّى جاوَزَتِ الحَناجِرَ إلى المَعازِف، فنزَلَتِ اليَراعَ المطَرِّبَ[٨] والنُّحاسَ الهاتِف[٩]؛ لمْ تَخْلُ ثُكْنَةٌ[١٠] مِن بُوق، أو طَبلٍ مَدْقوق؛ ولم يَخلُ كُوخٌ مِن يَراعٍ مَثْقوب، ولا قَصْرٌ مِن وَتَرٍ مَضْروب.

وعلى أَدِيمِ الأبيضِ المتوسِّطِ مَشَى المَثَّالُ الأَوَّل[١١]، وبحجارته وَقَفَ فتَخيَّل، فَلانَ لِبَنانِه الحَجَر، ودانَ لِمِنْحاتِه[١٢] الصَّخَر[١٣]، حتَّى زَيَّنَ الـزُّونَ[١٤] بالبديعِ

(١) **بنتاءور**: شاعرُ مِصرَ القديم. **وعِبْرُ البحر**: شاطئه.

(٢) **هومير**: أقدم شعراء اليونان. **والسَّحر والنحر**: هما الرئة، وموضع القِلادة على الصدر.

(٣) **الإلياذة**: ديوان من شعر هومير، جَمَع فيه مفاخرَ الأبطال القدماء.

[**قلت**: وقد زفَّ سليمان البستاني = (١٢٧٣-١٣٤٣هـ =١٨٥٦- ١٩٢٥م) = إلى قراء العربية «**إلياذة هوميروس**» معربة نظمًا، ووضع عليها شرحًا تاريخيًّا أدبيًّا، وقدمها بمقدمة هي في النفاسة غاية].

(٤) **هيرودوت**: هو المؤرخ المصري المشهور.

(٥) **الأحناء**: الجوانب.

(٦) **الأفياء**: الظلال. **والخمائل**: جمع خَميلة، وهي مكان يلتفُّ فيه النبات.

(٧) **الترسُّل**: الترفُّق.

(٨) **اليَراع**: القصب الذي يزمِّر به الراعي. **والمطرب**: الذي يُرجِّع الصوت ويحسِّنه.

(٩) **هُتاف النُّحاس**: ترجيع الصوت في أبواقه.

(١٠) **الثُّكنة**: معسكر الجند.

(١١) **أديم البحر**: صفحته. **والمَثَّال** -بالتشديد-: صانع التماثيل. ولعلَّ المؤلِّفَ أَوَّلُ مَن نَبَّهَ إلى استعمال هذا اللفظ الدَّفِين.

(١٢) **المِنْحات**: آلة النَّحت.

(١٣) [**قلت**: الصخْر والصخَر، بإسكان الخاء وتحريكها: جمع صخْرة وصخَرة، بسكون الخاء وفتحها أيضًا].

(١٤) **الزُّون**: مجمع الأصنام.

والغريب، ونَثَرَ الدُّمَى على المَحاريب(١)، وجاءَ في الفنِّ بالأعاجيب. صنعَ أبا الهَوْل، فجاءَ بالهَوْلِ والزَّوْل(٢)؛ كان ذلك حينَ سائرُ المَعمور مَجاهِل، والنَّاسُ جُهَّال؛ عالَمٌ غافِل، يَهِيمُ في أَغْفال(٣).

فيا ناشئَ الكِنانة:

إذا وقفْتَ على لُجَّةِ (الرَّمل)، أو نَقَّلْتَ القَدَمَ على رملةِ (المَكس)، في أَصِيلٍ لَذَّتْ حَواشيه، وحَلَّى جِلْبابَهُ بالذَّهبِ وَاشِيه، وفَضاءٍ اصْفَرَّ مِن نَعِيِّ الشَّمسِ ضاحِيه(٤)، وقُرِّبَتْ لها الأكفانُ مِن زَعْفرانٍ نَواحيه(٥)، فتبَصَّرْ! هل تَرَى غيرَ ساحلٍ طَيِّبِ البُقْعة، وأَديمٍ جَيِّدِ الرُّقعة؟ وهل تُحِسُّ غيرَ بحرٍ ضاحكِ الماء، مُتَهَلِّلِ السَّماء، حُلْوِ بَشاشةِ الفَضاء، يَصحَبُ الصَّحْو، ويَسحَبُ الزَّهْو(٦)، ويَلْهو وما عَرَفَ اللَّهْو(٧)، وخَريرُه تسبيحٌ وما هو بِلَغْو(٨)؟

لِآبائِكَ عِندَه ـ مُنذُ ماجَتْ أَمْواجُه، ولَجَّتْ لِجَاجُه(٩)، وهَدَرَ عَجَّاجُه(١٠)، وأُنشِئَ

(١) **الدمَى**: جمع دُمْية، وهي الصورة المزيَّنة أو الصنم المنقوش. **والمحراب**: صدر البيت وأكرم مواضعه، والجمع: محاريب.

(٢) **الزول**: العَجَب.

(٣) **الأغفال**: جمع غُفْل. **والأرض الغفل**: التي لم يُنصب عليها عَلَم، ولم تقم عليها عِمارة.

(٤) **ضاحيه**: ظاهره وباديه. **ونعي الشمس**: مجاز يراد به غروبُها. **واصفرار الفضاء لنعي الشمس**: استعارة شبِّهت فيها الشمس بميت، وشبِّه الفضاء بمَن أصيب فيه، فانتابه من صفرة الروع ما ينتاب الثاكل المَرْزُوء.

(٥) **الأكفان من زعفران**: كناية عن صفرتها. ولا يزال المؤلف مستمرًّا في مجازه الذي ابتدأه في الجملة السابقة.

(٦) **الزهو**: العُجْب والتخايل.

(٧) **لهو البحر**: تلاعبه بها على صفحته من السفن.

(٨) **اللغو من الحديث**: الباطل. **والمراد بتسبيح الخرير**: ما يُلقي في النفْس من أثر اليقين في صوته العجيب. [**قلت**: وإن حمل التسبيح على ظاهره فمقبول عند طائفة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤)].

(٩) **اللجاج**: جمع لُجَّة، وهي معظم الماء.

(١٠) **العَجَّاج من الماء**: ما سُمع له عجيج.

للرِّياحِ شِراعُه وساجُه[١] ـ جِوارُ الأَكْرَمِين، وصُحْبَةُ المُحْسِنِين، وكَنَفُ السَّماحِ الخَيِّرِين.

شمسٌ مُتوقِّدة، وطبيعةٌ مُتَودِّدة، ولُجَّةٌ غيرُ مُتمرِّدة، وغَيرُه مِنَ البحارِ ذَميمُ الجِوار، لئيمُ النِّجار[٢]؛ ضَبابٌ مُخيِّم، وسَحابٌ مُدَيِّم[٣]؛ أَعاصيرُ مُرْسَلة، وصَواعِقُ مُنزَلة؛ زمَنٌ مُضْطَرِبُ الفُصول، وطبيعةٌ تَختلِفُ وتَحُول، كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغُول[٤].

تلكَ اللُّجَّةُ ـ أيُّها النَّاشئُ ـ هي مِن أَوطانِكَ عُنوانُ الكِتاب، ومِصْراعُ الباب، ووَجْهُ الخَميلة، وظاهِرُ المدينة، وعَوْرةُ الحِصْن. وإنَّ قومًا لهم على البحرِ مُلْك، وليس لهم فيه فُلْك، لَقَوْمٌ دُولتُهُم[٥] واهيةُ السِّلْك، وسُلْطانُهم وإنْ طال المَدَى إلى هُلْك!

ويا أيُّها الأبيضُ الأَغَرُّ سلام، وإنْ أَنْزَلَتْنا عن صَهْوَتِكَ الأَيَّام، وأَبدَلَتْنا مِن سُلْطانِكَ الخافِقِ الأعلام، بمَمالِكَ مِن كلام، ودُوَلٍ مِن أَمانيَّ وأحلام!

ويا عَرْشَ الأُبُوَّة ثَناء، وإنْ ثَلَّكَ الأبناء[٦]، ثمَّ لم يُحْسِنوا البِناء.

أين دُوَلٌ كانتْ مَطالِعَ أنوارِك، ومَعاصِمَ سُوَارِك؟ وما الَّذي نَأَى بجَواريها[٧] عن جِوارِك، وهَوَى بسَواريها[٨] في أَغْوارِك؟

أين الفَراعنةُ وما جَدَّفُوا مِن بُروجٍ مُشَيَّدة[٩]؟ والبَطالِسةُ وما مَدُّوا مِن شُرُعٍ

---

(١) **الساج**: شجر عظيم ينبت في الهند، وخشبه رزين أسودُ لا تكاد الأرض تبليه. والمراد به هنا: ما يصنع منه من سفين.

(٢) **النِّجار**: الأصل.

(٣) أي: ممطر.

(٤) **تَلَوَّن**: أَصْلُها: تتلوَّن، ثم حُذفت التاء؛ للتخفيف. **والغول**: مَن يتلون ألوانًا مختلفة من الجن والسحرة.

(٥) [**الدُّولة**: الغلبة والسلطان]. (و)

(٦) [**ثَلَّ العرشَ**: هدَمه وأذهب سلطانَه]. (و)

(٧) **الجواري**: السفن.

(٨) **السواري**: عُمُد يُنصب عليها الشراع.

(٩) **البروج المشيدة هنا** يراد بها السفن الضخمة. **والتجديف**: تسيير السفن بالمجداف.

كالصُّروحِ المُمَرَّدة(١)؟ وأين الشَّوْناتُ الأَيُّوبيَّة(٢)، والبَوارِجُ العَلَوِيَّة(٣)؟

هَيْهَاتَ! أَزْرَى الدَّهرُ بالإسكندريَّة، فحَجَبَ ذلك المَنَار(٤)، ونَصَبَ هذا الفَنَار.

وأين اللَّيلُ والنَّهار، وأين الظُّلُماتُ مِنَ الأنوار؟!

ذلك كان أضوأَ هالَة(٥)، وأَسْطَعَ على التَّمكُّنِ في الأرضِ دَلالَة، وأَضْفَى على مَناكِبِ البَرِّ والبحرِ جَلالة؛ يَهتدي به الدَّاخِلُ والخارِج، ويَستأمِنُ الدَّابُّ في حِماهُ والدَّارِج، وتُنِيفُ(٦) عليه البُروجُ وتُطِيفُ به(٧) البَوارِج.

وهذا(٨) سِراجُ بَيْت، وذُبَالةُ زَيْت، وشُعاعٌ كنَفَسِ المُحْتَضَرِ حَيٌّ مَيْت!

مُلْكُنا الواسعُ مِن وَرائِه بابٌ ولا بَوَّاب، وسُدَّةٌ ولا حِجاب؛ غابٌ ولا ناب(٩)، ووَكْرٌ ولا عُقاب(١٠)!

تَعاقَبَتْ عليه حُكوماتٌ أَلْقَتِ السِّلاح، وأَلْغَتِ الإصلاح، تقولُ فتَجِدُّ وتَعمَلُ فتَهزِل، ولا تُحسِنُ مِن سياسةِ المُلْكِ غيرَ أن تُوَلِّيَ وتَعزِل، وتَجْبِي القُطنَ ولا تُفكِّرُ في المِغْزَل!

تُخايِلُ بالبَحْريَّةِ والوزير؛ وتأْتي قَبْلَ الماءِ بالزِّير!!!



(١) **الشَّرْع**: القُلوع. **وتمريد البناء**: تمليسه وتسويته.

(٢) **الشونات**: هي سفن الحرب، وقد كان لبني أيوبَ منها أسطولٌ عظيم.

(٣) التي أنشأها محمد علي باشا جد الأسرة المالكة.

(٤) المنار الذي أقامه البطالسة في الإسكندرية، فكان سِرَاجها الوَهَّاج.

(٥) **هالة القمر**: دارته. والإشارة هنا للمنار.

(٦) تُشْرِف.

(٧) [**أي**: تحيط به]. (و)

(٨) الإشارة للفنار الموجود الآن.

[**قلت**: لأحمد شوقي قصيد فيه، مثبَت في الطبعة الثانية للجزء الرابع من ديوانه، بعناية العريان].

(٩) **الناب**: يطلق على الأسد؛ من تسمية الكل باسم جزئه.

(١٠) [**قلت**: **العُقاب** ـ بضم العين: الطائر القوي المخالب، المضروب به المثل في حدة البصر. **والوَكْر**: عُشُّ الطائر].

صِفَـةُ الظَّبْـي

عَروسُ البِيد(١)، الفاتِنُ كالغِيد(٢)، بالمُقْلَةِ والجِيد(٣)، الفَرُوقةُ الرِّعْدِيد(٤).

وصَفْتُه فقُلْتُ:

عَيْنانِ سَوادُهما داج، وبَياضُهما عاج(٥)، وإنسانُهما حائِرٌ ساج(٦)؛ في رأسٍ كأنَّه قَدَمُ الكَعاب(٧)، أو كأنَّه خَزَفِيٌّ مِنَ الأكواب؛ رُكِّبَ في عُنُقٍ كإبريقِ الشَّراب؛ وله رَوْقان(٨)، كأنَّهما نَصْلانِ صَدِئان، وكأنَّ إبْرَتَيْهِما مِرْوَد(٩)، انتَشَرَ عليه الإثمد(١٠)؛ وكأنَّ قَوائِمَه السُّمْرُ الخِفاف(١١)، وكأنَّ زُجاجَ أَرْماحِها الأَظْلاف؛ كلُّ ذلك في إهابٍ أَغْبَرَ اللَّونِ كَدِر، كأنَّه الثَّوْبُ السَّويُّ المُنقَدِر(١٢)؛ ليس بفَضْفاضٍ ولا بالمُنحَسِر.

---

(١) [جمع بَيْداء، وهي الفلاة].(و)

(٢) [**الغَيْداء**: المرأة تتثنى في نعومة ولين]. (و)

(٣) [**الجِيد**: العُنُق، موضع القِلادة]. (و)

(٤) **الفروقة الرعديد**: الشديد الفزع الجبان.

(٥) [**أي**: لونها أبيضُ مُصْفَرٌّ؛ نسبة إلى العاج، وهو ناب الفيل].(و)

(٦) [**ساجَ سَوْجًا**: ذهب وجاء. **وإنسان العَين**: ناظِرُها].(و)

(٧) [**الجارية الكَعَاب**: البِكْر، التي نَهَدَ ثديُها. ومنه الآية: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ (النبأ:٣٣)]. (و).

(٨) [**الروق**: القرن]. (و)

(٩) **المرود**: **الميل** الذي يكتحل به.

(١٠) مسحوق الكحل.

(١١) [أراه يعني: القَنَا؛ جمع قناة، وهي الرُّمح الأجوف].(و)

(١٢) [المفصَّل على مقدار الجسد؛ من غير زيادة ولا نقصان].(و)

وإذا عدا فَسَهْم، وإذا أَخَذَه المَدَى فوَهْم ، وثَباتٌ تنتَظِمُ الرَّبْوَةَ والحُفرة، وتُثْبِتُ وُجودَ الطَّفْرة، وإذا قامَ على ظِلْفَيْه، وأَرهَفَ للرِّياحِ حُرَّتَيْه [١] ، وشَرَعَ في السَّماءِ رَوْقَيْه [٢] ؛ خِلْتَه دُمْيَةَ مِحراب، أو شُجَيْرةً عليها تُراب.



(١) أي: أُذُنيه.
(٢) [يعني: قَرْنَيْه].(و)



صِفَةُ الأَسَد

طاغيةُ الصَّحَراء، وجَبَّارُ العَراء، وأَجْرَأُ مَن وَطِئَ الغَبْراء(١).

عَرْشُه غابتُه، وحِجابُه مَهابَتُه، والوَحدةُ مَجلِسُه وصَحابتُه؛ ابنُ الصَّحراءِ البِكرُ نَحتَتْ أجلادُه مِن صَخرِها، واستَوقَدَتْ بأسَه مِن حَرِّها، وطَبَعَتْه على انقباضِها وكِبْرِها؛ وكأنَّ الصُّورَ(٢) حَنجرتُه، وكأنَّ نَفخةَ الصُّورِ زَمْجَرتُه، إذا سُمِعَتْ خَفَتَتِ(٣) العَقائِر(٤)، ولاذَتِ الهَوامُّ بالحفائِر، وطارَ الواقِعُ ووقَعَ الطَّائِر.

وصَفْتُه فقُلْتُ:

هامَةٌ مِن أَضخَمِ القِمَم(٥)، جَلَسَتْ على المَنكِبِ العَمَم(٦)، ولَبِسَتْ تاجَ الشُّهرةِ في الأُمَم.

وراءَ الهامَةِ غَفْرة(٧)، كأنَّها اللَّامة(٨)، هي اللِّبْدة، وهي عِمامةُ أُسامة(٩)، دارَتْ على وجْهٍ كوَجهِ المَوتِ بادي الشِّرَّة، مُنقبِضِ الأَسِرَّة؛ ذي جبهةٍ مُغْبَرَّة، كجبهةِ القتالِ مُكْفَهِرَّة؛ وكأنَّها صفحةُ السَّيف؛ تَلْقى الحَتْفَ دُونَ الحَيْف.

---

(١) [الغَبْراء: الأرض].(و)

(٢) الصُّور: القرن الذي يُنفخ فيه يوم البعث [!].

(٣) خفتت: سكنت.

(٤) العقائر: الأصوات.

(٥) القمم: واحدها: قمَّة، وهي أعلى الرأس.

(٦) العمم: التامُّ الهيئة.

(٧) الغفرة: اللبدة.

(٨) اللأمة: الدرع.

(٩) أسامة: عَلَمُ جنس على الأسد.

في الجبهةِ عَيْنانِ كاللَّهَب، في حِجَاجَينِ[١] كالحَطَب؛ بيْنهما أَنْفٌ غليظُ القَصَبة، مُنتشِرُ الأرنبة؛ كأنَّه الأُفْعُوان افتَرَشَ الحَجَر؛ أَوِ اضْطَجَعَ في هَشيمِ الشَّجَر.

حَوْلَ الأنفِ كَلَحَة[٢]، كأنَّها خِزانةُ أسلحة، إذا انطبقَتْ فعنْ كَوامِنِ الغُيوب، وإذا انفتحَتْ فعنِ القَضاءِ بارِزِ النُّيوب.

ومِن عَجَبِ الخَلْقِ رأسٌ كأنَّه صخرة، أو كأنَّه أَرُومةٌ[٣] يابِسةٌ نَخِرة، يَنهَضُ به ساعِدٌ جَدْل[٤]، لا هَزِيلٌ ولا عَبْل[٥]، كما تَنهَضُ أُسطوانةُ الحديدِ على قِلَّتِها، بالكثيرِ الضَّخمِ مِنَ البناء.

وللأسدِ كَفٌّ كأنَّها المُدَجَّج[٦]، أو كأنَّها الحَجَرُ المُدْمَج، «إذا مَسَّتْ فَقارَ الفَرَسِ قَطَعَتْ نَظْمَه، ونَثَرَتْ لحمَه وعَظْمَه»[٧].

كلُّ ذلك في إهابٍ أَغْبَر، وجِلْبابٍ أَكْدَر، كأنَّما صُنِعَا مِنَ القَفْر، أو قُطِعَا مِنَ الصَّخر، أو كأنَّما كُسِيَا لَوْنَ الصَّحراءِ كما تُكْسَى البَوارِجُ لَوْنَ البحر.

وإذا قام على بُرْثُنِه[٨] فتِمْثال، وإذا انقَضَّ فهَضْبٌ[٩] مُنْهال، وإذا تراءَى بالسَّهلِ فدِعامة، وإذا طَلَعَ مِنَ الحَزْنِ فغَمامة.

---

(١) **الحجاجان**: عَظْما الحاجبين.

(٢) **الكَلَحة**: الفم وما حواليه.

(٣) [**أي**: أصل شجرة].(و)

(٤) **الجدل**: الحسن الفتل.

(5) [**العبْل**: الضخم الممتلئ].(و)

(٦) **المدجج**: القُنفذ.

(٧) هذه الجملة عن «**لاروس**» الكبير.

[قلت: يعني معجم «**لاروس**» الفرنسي الشهير].

(٨) **البرثن**: المِخْلَب.

(٩) [قد أنبأناك –لا أخلى الله مكانَك– في موضع سبق أن الهَضْبة بسكون الضاد لا فتحِها، وتُجمع على: هَضْب، وهِضَاب].(و)



الأَسَدُ في حَديقة الحَيَوانات

يا جارَ الجِيزة، وأَسِيرَ الحديقة:

سَرَتِ الهُموم؛ فلمْ نَنَمْ، أرَّقَتْني شؤونٌ وشُجون، وذِكرياتٌ ممَّا تَركَتِ السِّنُون، وأَرَّقَكَ حَزُّ القَيْدِ وضَغْطُ الحديد، وأثارَكَ ذِكْرى الصَّيْدِ والحنينُ للبيد. سُبحانَ المُعزِّ بالحريَّة، المُذِلِّ بالرِّقِّ! ما أرَّقَكَ بالأسحار، وكان غَطيطُكَ أَرَقَ الصَّحَار(١)، وفَرَقَ(٢) السُّمَّار(٣) في الأَكْوار؟! وما بالُ زَئيرِكَ يَنامُ عليه الطَّيْرُ مِلْءَ جُفُونِه، ولا يَتحرَّكُ له لَيْلُ الجيزةِ مِن سُكونِه؟! أَصبَحَ أَقَلَّ مِنَ النُّباح وأَذَلَّ مِنَ النِّياح، وكان بالأمسِ يُرْعِدُ البِطَاح، ويُسقِطُ مِن يدِ البطلِ السِّلاح! وأين -أبا لِبْدَةَ- طَلْعةٌ كانت تَعْقِلُ الفَرَسَ والفارِس، فأَصبَحَتْ يَدْعو العُيونَ إليها الحارِس، يُطيفُ بها النَّشَأ(٤)، ولا تُخيفُ الرَّشَأ(٥)؟!

عَزاءً مَلِكَ البِيد، ابنَ الفاتِكِ الصِّنْديد، وأبا الخالةِ(٦) الصِّيد. وإنْ لم تَزِدْني عِلْمًا بالدُّولةِ كيف تَزُول، ولا بما عِندَ النَّاسِ للنِّعمةِ المَنْكوبة، والبُطولةِ المَقْهورة، والأخلاقِ المَخْذولة، والعُروشِ المَثْلولة؛ فقَبْلَكَ ضاقَتْ (أَغْماتُ)(٧) على سَجِينِها، وأَخْنَتْ(٨)

---

(١) **الصحار**: واحدها صحراء. (٢) **الفَرَق**: الخوف.

(٣) **السمار**: أي المتسامرين في الرحال.

(٤) **النشأ**: الأحداث.

(٥) [**قلت**: الرَّشَأ: ولد الظَّبْية إذا قَوِيَ ومشَى مع أمِّه. والجمع: أَرْشاءٌ].

(٦) **الخالة**: المتخايلون، من الخيلاء.

(٧) [**قلت**: هي قرية بالمغرب الأقصى، قُرب مَرَّاكُش، ويعني بسجينها: المعتمِدَ بنَ عَبَّاد، المتوفَّى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ٤٨٨هـ. وبها ضريحُه وضريح زوجِه اعتماد الرُّمَيْكِيَّة، صاحبة «**يوم الطين**»!

وانظر«**وَفَيات الأعيان**» لابن خلكان (٥/ ٢٤-٣٩)، و«**سير أعلام النبلاء**» للذهبي (١٩/ ٦١-٦٦)، و«**شذرات الذهب**» (٣/ ٣٨٦-٣٩١)].

(٨) [**أخنى عليه**: جارَ عليه وأهلكه].(و)

(أميرجُون)[١] على قَطِينها[٢]، وأَضَرَّتِ (القدِّيسةُ هيلانة) برَهِينها[٣]. أَجْوادٌ نَزَلَ بهمُ الدَّهْر، وأحرارٌ أَناخَ عليهِمُ الأَسْر، وأَمْلاكٌ[٤] جَرَى عليهمُ النَّهيُ والأمْر. وأنت في صَحَارِكَ أَطْوَلُ في المُلْكِ بُنْيانًا، وأعرَضُ في الأرض سلطانًا، وأَوسَعُ شُهرةً وأَنْبَهُ مكانًا. عَرْشُك أبا الأشبال، على السَّهْلِ والجِبال، وكلُّ دابٍّ[٥] على الرِّمال، رَعِيَّةٌ لك أو مال. تِمثالُ القوَّة، ومِثالُ المُرُوَّة. نَفْسٌ بهيمة، وأخلاقٌ عظيمة. أَلَسْتَ أبا لِبْدَة تَحْمي العَرينة، وتُحسِنُ عِشرةَ القَرينة، وتَبْني الذُّرِّيَّةَ المتينة، وتَعِفُّ عِندَ الشِّبَع، وتُفضِلُ على التَّبَع، وتَذهَبُ مَذْهَبَ الأقمار؛ فتَطلُعُ باللَّيلِ وتَستَسِرُّ بالنَّهار؟ ولك قَبْلَ البَطشِ جَلْجَلَةٌ[٦] مُنذِرة، وبَهْنَسَةٌ[٧] مُحَذِّرة، وغَيرُك في السِّباعِ خَتَلَ[٨] وخَتَر، وجاءَ القَرَنَ[٩] على خَمَر[١٠].

مِن أجْلِ هذا ومِثْلِه في الأخلاقِ ضَرَبَتِ الأُمَمُ بك الأمثال، ونَحَتُوا على صورتِك التِّمثال، واستَعارُوا أسماءَك للأبطال وأَشْباهِ الأبطال، حتَّى قيل للإِخْشِيديِّ[١١]: أَسَدُ القلب[١٢]، وقيل للصَّليبيِّ[١٣]: قَلْبُ الأسدِ! شُبِّهَ بك كلُّ شجاع، ولمْ تُشَبَّهْ من الشُّجْعان بأحد.

---

(١) **أميرجون**: قصر الخديو إسماعيل في مَنفاه بالأستانة.

(٢) **القطين**: القاطن.

(٣) **رهينها**: يعني به نابليونَ.

(٤) **الأملاك**: جمع ملك.

(٥) **داب**: ساعٍ.

(٦) **الجلجلة**: الزئير.

(٧) **البهنسة**: التبختر. [قلت: ومن أسماء الأسد: البَهْنَس].

(٨) **ختل وختر**: أي: غدر.

(٩) **القرن**: الخصم.

(١٠) **على خَمَر**: على غفلة.

(١١) **الإخشيدي**: هو كافور، وقوله: «أسد القلب» هو من قول المتنبي: «أسد القلب آدمي الرُّواء».

(١٢) [**قلت**: هذا وهَمٌ من المصنف؛ فإن القول المذكور وصَف به المتنبي نفسَه لا الإخشيدي، فقال مخاطبًا كافورًا:

يا رجاءَ العُيونِ في كل أرض ... لم يكن غيرَ أنْ أراكَ رجائي

ولقد أفنَتِ المفاوزُ خيلي ... قبل أنْ نلتقي وزادي ومائي

فارْمِ بي ما أردتَ منِّي فإني ... أسَدُ القلبِ آدَميُّ الرُّواءِ

وفؤادي من الملوك وإنْ كا ... ن لساني يُرى مِنَ الشعراءِ]

(١٣) **الصليبي**: هو ريتشارد ملك انكلترا، الملقب بقلب الأسد!

عَطْفٌ بقلبي على صِغارِكَ -أبا الأشبال- أنَّهم كصِغاري وُلِدوا في الرِّقِّ وشَبُّوا على مَسِّ هَوانِه، كِلا النَّشْأَينِ مَغْلوبٌ على ديارِه، مَرْزُوءٌ بالشَّريكِ في وِجَارِه(١)، مُغامِرٌ في صحراءِ الحياةِ بغيرِ أَظْفارِه.

وأَلانَ لك فؤادي -أبا لِبدةَ- هذا الذُّلُّ بعد العِزِّ، وهذا الرَّسْفُ(٢) في الضِّيقِ بعد المَرَحِ في السَّعةِ.

واستَأْواني(٣) قَيْدُ الحديد، بَعْدَ تاجِ البِيد.

وما أَسَفي واللهِ على ظُفُرِكَ المَقْلوم، ولا على نابِكَ المَحْطُوم؛ فإنِّي وَجَدْتُ البَغْيَ ليس يَدُوم. ولسْتُ أُنكِرُ عليك شِدَّةً لم يُنكِرْها النَّاسُ على الحضارةِ وهُمْ يَرَوْن ظُفُرَها يَقطُرُ مِن دَمِ الجبل(٤)، ويَرَوْنَ نابَها يَقطُرُ مِن دَمِ الرِّيف(٥)؛ وإنَّما أَسَفي -أبا الأشبالِ- على تلك الشَّخصيَّةِ المتظاهرة، وتلك الرُّوحيَّةِ القاهرة، وعلى حَضرةٍ كأنَّها مَجلِسُ الحُكْم، ونَظْرةٍ كأنَّها الأمر النَّافِذ، وعلى صَيْحةٍ تأْتيكَ بالصَّيْدِ مَشْكولًا، مُتَهيِّأً مِن نفْسِه مَأْكولًا؛ أدواتُ زعامة، وآلاتُ سِيادة، ممَّا يَهَبُ اللهُ لأفرادِ البشرِ أحيانًا، ويُلْقَى على آحادِ الرِّجالِ آنًا فآنًا، فإذا هُمُ القامةُ والسَّادة، وإذا الأُمَمُ تأْتيهم مُنقادَة. وقد زادَك اللهُ عليهم رَعِيَّةً سُلِبَتْ منها العقول، فاستَرَحْتَ مِنَ الرَّأيِ وصَراحتِه، والفِكْرِ وشجاعتِه، والمبدأِ وصَلابتِه، وكُفِيتَ سُيوفًا بَيْنَا هيَ لك، إذا هيَ عليك، وأقلامًا مَأْجورُها أَسِيرُك، وطَلِيقُها أنتَ أَسِيرُه.

أَعَلِمتَ -أبا الأَشبالِ- إلى أيِّ الآجامِ نُقِلْتَ، وفي أيِّ الآطامِ اعتُقِلْتَ؟

---

(١) **الوجار:** جُحر السَّبُع، **والمراد به هنا:** الوطن.

(٢) **الرسْف:** مشيُ المقيَّد.

(٣) [**استَأْواه:** بعثه على الرحمة والشفقة].(و)

(٤) **الجبل:** هو جبل الدروز.

[**قلت:** يشير إلى الدروز والثورة السورية].

(٥) **الريف:** هو وطن عبد الكريم وقَومِه.

[**قلت:** في شمالي المغرب، ومنها رمي بأول شرر الثورة الريفية. وعبد الكريم هو الخطابي].

أسمِعْتَ عن أسَدٍ نَجَم[١] في هذا الأَجَم، وضِرْغامةٍ غاب، عن هذا الغاب؟ أَذَلَّتِ الحوادثُ بالأمسِ عِرْنِينَه، واحتَلَّتِ الخُطوبُ عَرِينَه، وعَطَّلَتْ نَكْبَتُه الدُّنيا مِن زِينَة، وغادَرَتْها بَعْدَ فَرَحٍ حزينة، وكان أَكثَرَ مِن آبائِكَ أسماءً، وأَطوَلَ مِن عَشِيرتِكَ في العِزِّ سماءً، وأَمنَعَ واديًا وأَعَزَّ ماءً، مَنَعَكُمُ القَرارَ بالصَّحراءِ صهيلُه[٢]، وخَلَفَ زئيرَكُم عليها صَليلُه[٣]، وغلَبَكُم على أطرافِها فكلُّ ماءٍ بها ماؤُه وكلُّ يَبَسٍ غِيلُه[٤]، وكانت هذه الحَرَجاتُ[٥] تحتَه أَجِمَةَ الأغلبِ الهَصُور، وكانت نَظْمًا مِن قُصور، لم تَرَ أمثالَه العُصور، فلا (الجَعْفَريُّ)[٦] حكاه، ولا (الزَّهراءُ)[٧] أُعطِيَتْ حُلَاه، ولا الإيوانُ ساواه، في شَرَفِه وعُلاه. وكانت هذه الجَنَّاتُ وَشْيَ دُورِه، وحَلْيِ قُصورِه، وكانت هذه العيونُ مَحاجِرَ العِينِ مِن حُورِه، ومَعاصِمَ رِيمِه ويَعْفُوره[٨]. وكانت هذه السَّاحة، سماءَ النَّدَى وأرضَ السَّماحة؛ جَنَّاتٌ وقُصور، ونعيمٌ وحُبور، وعِينٌ حُور، يَطَأْنَ المِسْكَ والكافُور. مَرْمَرٌ راعَ مَسْنونُه بِلْقِيسَ الزَّمان[٩]، فكشَفَتْ عن ساقَيْها بيْن يدَيْ سُلَيْمان.



---

(١) **نجم**: ظهر، **والمراد** بالأسد هنا: الخديو إسماعيل.

(٢) **صهيله**: أي: صهيل خيله.

(٣) **صليله**: أي: صليل سيوفه.

(٤) [**الغيل**: موضع الأسد].(و)

(٥) **الحرجات**: الخمائل.

(٦) الجعفري: قصر المتوكل.

[**قلت**: هو الخليفة العباسي المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم بالله محمد ابن الرشيد هارون ابن المهدي محمد ابن المنصور أبي جعفر].

(٧) **الزهراء**: قصر الخليفة الأُموي بالأندلس.

[**قلت**: الذي كان داخل مدينة الزهراء، وقد بناها وبناه عبدُ الرحمن الناصر].

(٨) **اليَعْفُور**: الظبي.

(٩) **يشير ببلقيس**: إلى الإمبراطورة أوجيني، نزيلة هذه القصور بالأمس.

[**قلت**: مرَّ حديث عنها فيما سلف. **وبِلقيس** بكسر الباء. وليس يخفى بطلانُ ما ذُكر أعلاه].

الجَمَال

جَمَعَتِ الطَّبيعةُ عبقريَّتَها فكانتِ الجمال، وكان أَحسَنَه وأَشرَفَهُ ما حَلَّ في الهَيْكلِ الآدميِّ، وجاوَرَ العقلَ الشَّريفَ والنَّفْسَ اللَّطيفةَ والحياةَ الشَّاعِرة. فالجمالُ البَشَريُّ سَيِّدُ الجمالِ كلِّه... لا المَثَّالُ البارِعُ استَطاع أن يَخْلَعَه على الدُّمَى الحِسان، ولا للنَّيِّراتِ الزُّهْرِ في ليالي الصَّحراءِ ما له مِن لَمحةٍ وبَهاء، ولا لبديعِ الزَّهرِ وغَريبِه في شبابِ الرَّبيعِ ما له مِن بَشاشةٍ وطِيب.

وليسَ الجمالُ بلَمحةِ العُيون، ولا ببَريقِ الثُّغور، ولا هَيَفِ القُدود[١]، ولا أَسالةِ الخُدود[٢]، ولا لُؤْلُؤِ الثَّنايا وراءَ عَقِيقِ الشِّفاه، ولكنْ شُعاعٌ عُلْوِيٌّ يَبسُطُه الجميلُ البديعُ على بعضِ الهياكلِ البَشَريَّةِ، يَكْسُوها رَوْعةً، ويَجْعَلُها سِحْرًا وفِتنةً للناس.



(١) [مفردها: قَدٌّ، وهو القَوام].(و)
(٢) [**خدٌّ أَسِيل**: أَمْلَسُ لَيِّنٌ].(و)

الأُمومَة

الأُمومةُ هي رسالةُ المرأةِ على هذه الأرض، وشأْنُها الأوَّلُ في الحياة، وهي حَجَرُ الأساسِ في الأُسْرة، وقواعِدُ المجتمَعِ وأركانُه مُنذُ قام إلى يَومِ يَنفَضُّ.

وفي الأُمومةِ اجتمَعَتْ خِلالُ البِرِّ، ونَوائِبُ الحقِّ، وتَبِعاتُ الواجِبِ، وصُوَرُ البُطولةِ، وفَضائِلُ الإيثارِ، ومَواطِنُ الصَّبرِ الجميلِ.

وكأنَّ الأُمومةَ في البيتِ المَلِكةُ في الخَلِيَّة، أوِ العَذْراءُ في البِيعة[١].

فيا أيَّتُها الفتاةُ المُدِلَّةُ بِصِباها، المَزْهُوَّةُ بحُسْنِها، المُتَرَقِّبةُ مِن وَرائِها لَذَّةَ الحُبِّ وفَيْضَ السَّعادة: اذْكُري أنَّ الجَمالَ حُرٌّ طَلِيقٌ إلَّا مِن قَيدَينِ، كِلاهُما أَجمَلُ منه: الشَّرف، والعَفاف، إذا انسَلَّ منهما عَثَرَ في خُطاهُ الأُولى، وذَوَى[٢] في إبَّانِ النَّضْرة. وسَلِي ذَواتِ الشَّعرِ الأبيضِ ممَّن حَوْلَكِ مِن غَواني أَمْسِ: هلْ دَولةُ الحُسنِ إلَّا كدَولةِ الزَّهَر؟ وهل عُمُرُ الصِّبا إلَّا أَصِيلٌ أو سَحَر؟ وهل غيرَ الأمومةِ تاجٌ للمرأةِ تَلبَسُه مِن مُختلفِ الشَّعرِ ألوانًا؟

جَمالُ الأُمومة لَمحةٌ مِن جَمالِ الحياة، وشُعاعٌ مِن عَبقريَّتِها، وهو أَحفَلُ أيَّامًا، وأَطْوَلُ مَقامًا، وأَصْدَقُ أحلامًا.

حُبُّ الأمومةِ أَشهُرٌ وسِنُون، وبَناتٌ وبَنون، وأشغالٌ وشُئون، ويبقى مع الثُّكْل، ويَتَّقِدُ عِندَ حشرجة الصدر، ولا يَنطَفِئُ إلَّا بانطفاءِ القلب.

لَذَّةُ الأُمومةِ معنًى قُدسيٌّ، وسِرٌّ خَفيٌّ، وحالٌ كمَناعِمِ الخُلْدِ ولَذَّاتِه. ليس مِنَّا إلَّا مَن قرأه في تلكَ العيونِ الَّتي رَعَتْنا في المُهودِ صِغارًا، وسَهِرَتْ علينا في فِراشِ المرضِ كِبارًا.

---

(١) [البِيعة -بكسر الباء-: الكنيسة. جمعها: بِيَعٌ].(و)
(٢) [ذَوَى: ذَبَلَ].(و)

الكاتِبُ العُموميُّ

تِمثالٌ مِنَ الجَهلِ العام، صَنَعَتْهُ القُرونُ والأجيال، حَفَّارُه عَبَثُ الحاكم، وطِينَتُه غفلةُ المَحكُوم، وهو الأُمِّيَّةُ على قارعةِ الطَّريق، لا يَجْمَعُه والحضارةَ مكانٌ.



الحَياةُ وَهْمٌ ولَعِبٌ

الحَياةُ تَوَهُّمٌ:

عِشْنا بالوَهمِ الزَّمَنَ الرَّغَد، وعِشْنا بالوَهمِ الزَّمَنَ النَّكَد.

طافَ بنا الوَهمُ على السَّعادةِ أحيانًا، ومَرَّ بنا على الشَّقاءِ آنًا فآنًا.

وبالوَهمِ عادَيْنَا وبِالْوَهمِ والَيْنَا، وبِالْوَهمِ مَرِضْنا وبِالْوَهمِ تَداوَيْنا، حتَّى إذا جاءَتْ سَكْرةُ المَوتِ كان ذلك أوَّلَ العهدِ بالحقيقةِ.

والحَياةُ لَعِبٌ:

قَضَيْنا الطُّفولةَ باللَّعِب، وقَطَعْنا الشَّبابَ مَلَاهيَ ومَلاعِب، ولَعِبْنا في ظِلِّ المَشِيب، حتَّى إذا جاءتْ سَكْرةُ المَوتِ كان ذلك أوَّلَ العهدِ بالجِدِّ.



العَلَم

شِعارُ الأُمَمِ وفَخارُهم، اتَّخَذَ النَّاسُ في شبابِ الدُّوَلِ الأَعلامَ، ولا يَزالون في ظِلِّ هذه الحضارةِ الكُبرى يَبْلُغونَ في مَحَبَّةِ العَلَمِ وإجلالِه إلى التَّقديس؛ فهو حيث يَخطِرُ وحيث يَخفِقُ شَبَحُ الوطنِ المَنْظور، وماضيه المَنشور، وتاجُ الرُّؤوسِ كلِّها، وقِبلةُ الوُجوهِ جميعًا؛ إذا نُشِرَ في السِّلْمِ خَلَعَ على أيَّامِها الجمال، وكَسَا مَواكِبَها المَهابةَ والجَلال، وإذا رُفِعَ في الحربِ كان نَظْمَ الصُّفوفِ، وأُلْفَةَ القلوبِ، ومَثارَ الحماسِ، وداعيَ التَّضحية، وسَحَبَ النِّسيانَ على الأحقاد، وحَسَمَ ما اشتَهَتْهُ الأعاد.

مِنديلٌ طالما رُفِع على أيدي الآباءِ فكَفْكَفوا به دَمْعَ الحَزَن، وتَلَقَّوْا فيه دمعَ الفَرَح، ضَحِكوا وراءَه كثيرًا في نَصِيبِينَ(١) وقَعَدُوا حَوْلَه في عُرْسٍ، وبَكَوْا حَوْلَه كثيرًا في التَّلِّ الكبيرِ(٢) وقامُوا وراءَه في مأْتَمٍ.

فيا أيُّها العَلَمُ الأخضرُ(٣) كدِيباجةِ السِّلْم، أو كظِلالِ الخِصْب، المُستعيرُ الهلالَ غُرَّة، المُفَصَّلُ بنُجومِ السَّعد، المَوْسومُ بالحضارةِ مِن عَهدِ خوفو ومِنا(٤)، المُحَلَّى بالفتحِ

(١) [قلت: هي المعركة التي نَشِبَتْ بين قوات محمد علي سِرْشِشْمَة بقيادة الغشوم إبراهيم باشا، وبين العثمانيين، في شهر ربيع الآخِر سنة ١٢٥٥هـ= يونية/ حَزيران ١٨٣٩م، وانتصرت فيها قوات محمد علي].

(٢) [قلت: موقعة التل الكبير دارت رحاها بين الجيش الإنكليزي، والقوات المصرية وعلى رأس الجيش أحمد عرابي، وقد انهزم فيها عرابي، وعلى إثرها احتل الإنكليز مصر، وحكموا على عرابي باشا ومن دار في فلكه بالإعدام، ثم صَدَفوا عن ذا الحكم ونفوه إلى جزيرة سيلان.
وكانت وقعة التل الكبير في العاشر من ذي القَعدة ١٢٩٩هـ=١٣ سبتمبر/ أيلول١٨٨٢م].

(٣) [قلت: هكذا كان العَلَمُ المصري فيما مضى من سالف الدهر: مساحة خضراء قد رُسم فيها هلالٌ أبيضُ معقوف على نجوم ثلاثة. وقد استبدلوا باللون الأخضرِ الألوانَ الثلاثة المعروفة في العلم الوطني لهذا العهد، بَدءًا من ١٩٥٨م، مع اختلاف حاصل في الرسم، إلى أن اعتُمد هذا الأخير في أكتوبر/ تشرين الأول سنة ١٩٨٤م].

(٤) [قلت: يعني الملك مينا، المنعوتَ بموحِّد القطرين].

مِن زمَنِ ابنِ العاص، النَّابِهُ الأيَّامِ والوَقائِعِ بين يدَيْ إبراهيم، لا زِلْتَ تُرْفَعُ لِمَجْد، ولا زالتِ الأجيالُ تَتلقَّاكَ يمينًا، ولا نُشِرْتَ إلَّا في حقٍّ، ولا طُوِيتَ إلَّا على حقٍّ.

ويا ابنَ مِصرَ على قَدَم، حَيِّ العَلَم!.



السَّجْـــع

السَّجْعُ شِعرُ العربيَّةِ الثاني، وقَوافٍ مَرِنةٌ رَيِّضةٌ خُصَّتْ بها الفُصحى، يَستريحُ إليها الشَّاعرُ المَطْبوع، ويُرسِلُ فيها الكاتبُ المُتفنِّنُ خيالَه، ويَسْلو بها أحيانًا عمَّا فاتَه مِنَ القدرةِ على صياغةِ الشِّعر. وكلُّ موضِعٍ للشِّعرِ الرَّصينِ محَلٌّ للسَّجْع، وكلُّ قرارٍ لمُوسيقاهُ قرارٌ كذلك للسَّجع، فإنَّما يوضَعُ السَّجعُ النَّابغُ فيما يَصلُحُ مَواضِعَ للشِّعرِ الرَّصين؛ مِن حكمةٍ تُختَرَع، أو مَثَلٍ يُضْرَب، أو وصْفٍ يُساقُ، ورُبَّما وُشِّيَتْ به الطِّوالُ مِن رسائلِ الأدبِ الخالصِ، ورُصِّعَتْ به القِصارُ مِن فِقَرِ البيانِ المَحْضِ.

وقد ظَلَمَ العربيَّةَ رجالٌ قَبَّحُوا السَّجعَ وعَدُّوه عَيْبًا فيها! وخَلَطوا الجميلَ المُتفرِّدَ بالقبيحِ المَرْذولِ منه يوضَعُ عُنوانًا لكِتابٍ أو دلالةً على بابٍ أو حَشْوًا في رسائلِ السِّياسةِ أو ثَرْثَرةً في المقالاتِ العِلميَّة!

فيا نَشْءَ العربيَّة، إنَّ لُغتكُم لَسَرِيَّةٌ مُثْرية، ولن يَضِيرَها عائبٌ لا يُنكِرُ حلاوةَ الفَواصلِ في الكِتابِ الكريم، ولا سَجْعَ الحَمامِ في الحديثِ الشَّريف، ولا كلَّ مأثورٍ خالدٍ مِن كلامِ السَّلفِ الصَّالح.



النَّقْــد

فَنٌّ قديمٌ كريمٌ وخالدٌ مِن رأسِ مالِ الحضارةِ في عُلومِ الأدبِ وفُنونِه، تَوارَثَه الأَواخِرُ عنِ الأوائِل، فأخَذَتْه حَضارتُهم فحسَّنَتْهُ على عادتِها وضَخَّمَتْ كُتَّابَه، ووَسَّعَتْ أبوابَه، وهَذَّبَتْ أُصولَه، ووَضَعَتْ قُيودَه؛ حتَّى صار مِن دَعائِمِ الصَّحافة، وأَضْحَى ظِلَّ التَّأليفِ ومَعرِضَ العَبقريَّاتِ ومِرْآةَ آثارِها في مَسائِلِ الأدبِ وشَتَّى مَطالِبِه.

والنَّقدُ حارسُ الأدب، ومُكَمِّلُ الكُتَّابِ والكُتب، وهو آلةُ إنشاء، وعُدَّةُ بِناء، وليس كما يَزْعُمُه الزَّاعِمونَ مِعْوَلَ هَدْم، ولا أداةَ تحطيم.

والنَّاقدُ مُستهدَفٌ يَعرِضُ عقْلَه وبضاعتَه وخُلُقَه وحُكْمَه على النَّاس، ورُبَّما ارتَدَّ مِعْوَلُه إليه ـ كما يَرتَدُّ سِلاحُ البَغيِ إلى صاحبِه ـ فهَدَمَه على المكانِ والنَّاسُ يَرَوْنَ وهو لا يرى مِن سَكرةِ الغُرور!

ومَن نَقَدَ على غَضَبٍ أَسْخَطَ الحقَّ، ومَن نَقَدَ على حِقْدٍ احتَرَقَ وإنْ ظَنَّ أنَّه حَرَقَ.

ومَن نَقَدَ على حسَد، لم يَخْفَ بَغْيُه على أحَد.

ومَن نَقَدَ على حُبٍّ حابَى، وجَمَحَ به التَّشَيُّعُ.



الزَّهْـــرَة

صورةُ الرِّقَّة، ورمزُ العاطِفة، وهَيْكلُ الخَيرِ والحُبِّ والجَمال.

قديمًا أُولِعَ بها النَّاسُ، وقديمًا ظلَموها. أمَّا هيَ فطالما مَلأتْ حدائقَهم بَهاءً وحُسْنًا، وحُجُراتِهم زينةً وطِيبًا، وجمَّلَتْ عُرَى ثيابِهم، وحَسَّنَتْ أعراسَهم وولائِمَهُم، فكانت مِنَصَّةً للعَروسِ وإكليلًا، وشارَةً للمائدةِ ومِنديلًا، وسَفَرَتْ[1] بيْنَ العُشَّاقِ فحَسُنَتْ رِسالةً ورَسولًا...

وأمَّا هُم فما أَشَدَّ ما جَنَوْا عليها؛ فَطَمُوها عن عُصارةِ العُود، وفَجَعوها في وَثيرِ المُهُود، وأَبْدَلُوها مِن طُولِ الفَضاءِ وعَرْضِه بالبَواطي[2] الضَّيِّقة، ومِن سماءِ الرَّوضِ وأَرْضِه بالجُدرانِ المُزهقة، ومِن ماءِ العُيونِ بماءِ الجِرَار، ومِن شُعاعِ الفَضاءِ الطَّلْقِ بشُعاعِ النَّافذةِ والكَوَّة[3]...

ظُلْمٌ عَبقريّ، وإحسانٌ جُزِيَ بغيرِ إحسان.



(١) [**السفير**: الرسول المصلِح بين القوم]. (و)
(٢) [**البواطي**: الآنية، واحدتها: باطية. معربة هي]. (و)
(٣) [**الكوة**: بفتح الكاف وتضم: الثقب في الجدار يدخل الضوءُ والهواء من خِلاله]. (و)

السَّاقِيَة

أَصَوْتُ السَّواقي في سماءِ اللَّيلِ وعلى فَضاءِ الرِّيفِ، أَمْ تَنغيمُ الملائكةِ في الأَراغيلِ[١]؟ أَمْ خُوَارُ الثَّوْرِ خَرَجَ مِنَ الأرض وقدْ أَخَذَه الضَّجَر، وناءَ قَرْناهُ بذُنوبِ البَشَر؟!

نَغَمٌ كالنَّفخِ في الغابِ، طبيعةٌ قادرةٌ[٢] ساحِرةٌ لها في كلِّ شيءٍ موسيقى حتَّى في اللِّيفِ والخشبِ.

فيا قَيْنَةَ[٣] الأجيال، ما هذه الدُّمُوعُ الفَوَاجِر، الَّتي لم تُغْرَفْ مِن شُئون[٤] ولم تُرسِلْها مَحاجِر؟ وما هذه الضُّلوعُ الهاتِفةُ بالشَّكْوى، الصَّارِخة مِنَ البَلْوى، وما عَرَفَتِ الهَوَى، ولا باتَتْ لَيْلةً على الجَوَى[٥]؟! حَدِّثينا عنِ القُرونِ الأُولى؛ قُرُونِ خُوفُو ومِنا ...



(١) [الأُرْغُول: مِزْمار ذو قصبتين مُثَقَّبَتَيْنِ إحداهما أطول من الأخرى. واللفظة مُوَلَّدة. قالوه في «الوسيط». ولا أراغيلَ للملائكة]. (و)

(٢) [قد يقال: الطبيعة فعيلة بمعنى مفعولة، فهي مطبوعة مسخَّرة مربوبة، فأنَّى لها القدرة؟!]. (و)

(٣) [القَيْنَة: المُغَنِّية]. (و)

(٤) [شؤون العين: مجاري الدمع فيها]. (و)

(٥) [الجوَى: الحُرْقة وشدة الوَجْد من عشقٍ أوْ حزنٍ. تقول منه: جَوِيَ الرجلُ، بالكسر، فهو جَوٍ، مثل دَوٍ. قاله في «الصحاح». ورجلٌ دَوٍ: أي: فاسد الجوف من داءٍ]. (و)



الشَّيْخُ المُهَنْدَمُ

أيُّها الشَّيخُ المُهَنْدَمُ المُقَذَّذُ[١]: ما غَرَّكَ بالسِّنِّ حتَّى لَبِسْتَ للصِّبا ثيابَه، ونازَعْتَ حَفيدَك شبابَه؟!

إنَّما مَثَلُكَ في هذا البَريقِ المُزَوَّرِ، وهذه النَّضَارةِ المُصْطَنَعةِ؛ كمَثَلِ الضِّرْسِ المَحْشُوِّ المَكْسُوِّ، نُزِع منه العَصَب، وخُلِعَ عليه الذَّهَب!



(١) [**المُقَذَّذ**: المُزَيَّن]. (و)

خَواطِـــرُ

مَنْ بَغَى بسلاح الحق؛ بُغِيَ عليه بسلاح الباطل.

قُبِّحَ الدَّيْنُ؛ نَطَقَ فَفَضَح، وسكت فَفَدَح.

يستريح النائم من قيود الحياة، كما يتروَّحُ السَّجينُ ساعةً في فناءِ السجن.

ما نَبَّه على الفضل الكاذب، مِثلُ الثناء الكاذب.

نخوة الكلب من الراعي، ومَنَعَةُ الديك من السَّطح.

إذا بالغ الناسُ؛ استَعاروا للهِرِّ شَوارِبَ النَّمِر.

قضاء السماء بقضاء الأرض اختلط، وهذا معصومٌ وهذا عُرْضةٌ للغلط.

الفضائل حلائِل، والرَّذائلُ خلائل[١].

(١) [**الحلائل**: جمع حَليلة، وهي الزوجة. **والخلائل**: المصاحبات المتَّخِذات الأخدان، واحدتها: خليلة].(و)

هلكَتْ أُمَّةٌ تحيا بفرد وتموت بفرد.

في الغَمْر[١] تستوي الأعماق.

فِراشُ المتعَبِ وَطيءٌ، وطعامُ الجائع هَنيءٌ.

تُغطِّي الشُّهرةُ على العيوب؛ كالشمس غطَّى نورُها على نارها.

للرِّياسات أذناب، فلا يكنْ ذَنَبُك كذَنَبِ الطَّاووس فيذهبَ بهاؤُك كلُّه لنَفْسه، ولا كذَنَب الفأر فينقطعَ عنك عند العسل، ولا كذنَب النَّجم فيَصْبُغَك بنحسه.

مَن عَجَزَ عفَّ، ومَن يَئِسَ كفَّ، ومَن جاع أَسَفَّ.

الأُمَم، بُنيانُ الهِمَم.

الصَّالحون يَبْنُون أنفسَهم، والمصلحون يبنون الجماعات.

المدرسة تُعلِّمُ ولا تُحلِّم، والحياة تُحلِّم وتُعلِّم.

المتحيِّز، لا يُميِّز.

(١) [**الماء الغَمْر**: الكثير الذي يَغْمُر مَن دَخَلَهُ ويُغطِّيه]. (و)

عاش العالِمُ فمات، ونَفَقَ الجاهلُ كالسائمات.

الخاصَّةُ أَذْوَقُ لحكمة البيان، والعامَّةُ أذوق لحكمة الألحان.

المال عُرْضة للآفات؛ فلا تتعجَّلوها بالسَّرَف.

ولد البخيل مرحوم(١)، وولد المبذر محروم.

الثقيل جبل، إذا تلطَّفَ سقط.

يدُ القاتل حمراءُ تَنِمُّ عليه في الدنيا، وتَشهَدُ عليه في الآخرة.

آسِ، ثمَّ انْصَحْ.

رُبَّما تقتضيك الشَّجاعة، أن تَجبُنَ ساعة.

الخير فيه ثوابُه وإن أبطأ، والشَّرُّ فيه عقابُه وقَلَّما أخطأ.

(١) [لا أدري كيف هذا القول، إلا أن يكون قد علاه تصحيف].(و)

الخير تَنفحُك جَوازيه، والشَّرُّ تَلفَحُك نَوازيه.

عليك أن تَلبَسَ النَّاسَ على أخلاقها، وليس عليك ترقيع أخلاقها.

العِتابُ رِفاءُ الوُدِّ.

لا سلطانَ على الذَّوقِ فيما يُحِبُّ ويَكرَه.

ذَنَبُ الطاووس رفع له رأسًا، وذنب النَّجمِ جَرَّ له نحسًا(١).

الغنيُّ مع الفقير في كَبَد؛ إذا مَنعَه حَسَد، وإذا أعطاه حَقَد.

النُّصح ثقيل؛ فلا تجعَلْه جدَلًا، ولا تُرسِلْه جبَلًا.

الرُّوحُ اللَّطيفةُ تستشفّ، والنَّفْسُ الشريفة تَستشرِف، والضَّميرُ النَّقيُّ مِرْآة؛ لو التَمَس فيها المَرءُ وجْهَ الغيبِ لرآه.

رُبَّ قارضٍ للأعراض، وعِرْضُه بيْن شِقَّي المِقْراض.

(١) [وهذا من الترهات البسابس!]. (و)

الحكمةُ قِوامُ الخيرِ الخاصِّ، ودِعامةُ الخيرِ العامِّ.

البصائر كالأبصار؛ إذا توجَّهَتْ في وجْهٍ ثمَّ لمْ تَتحوَّلْ عنه رجَعَتْ حَوْلَى.

أكثر الفضائل اصْطِلاح، وجوهرُها كلِّها الصَّلاح.

الذَّليلُ بغير قَيِّدٍ مُتَقيِّد؛ كالكلب لو لم يُسَدْ بحث عن سيِّد!

تَحسُنُ المرأةُ نصفَ عليمة، ويقبُح الرَّجُلُ نِصْفَ جاهل.

مَن أَثْرى[1] أو ساد؛ فلا يَعُدَّنَّ الحُسَّاد.

إذا خَدَعَ الطبيبُ المريضَ أعان الدَّواء، وإذا خدع المريضُ الطبيبَ أعان الدَّاء.

العامَّةُ أذنابُ مَن يَمسَحُ رؤُوسَهم.

يَهدِمُ الصَّدرُ الضَّيِّقُ ما يَبني العقلُ الواسعُ.

(١) [أَثْرَى: كثُر مالُه].(و)

العاقل مَن ذَكَر الموت ولم يَنْسَ الحياة[١].

يستأذن الموتُ على العاقل، ويدفع البابَ على الغافل.

قد يداويك مِنَ المرض اتِّقاؤه، ولا ينجيك من الموت إلَّا لقاؤه.

الغلط إذا أُدرك تَبدَّد، وإذا تُرِك تعدَّد.

المسيح بكر الحكمة.

على كتب السماء، تَهَجَّى الحكمةَ الحكماء.

كل غائب يُسْلى[٢]؛ إلَّا غائبَ الثَّكْلَى.

قَلَّما طار اسم الشاعر في حياته فوقع بعد مماته.

إذا كثُرَ الشعراء قلَّ الشعر.

(١) [لا يفوتني في هذا المقام أن أنبِّه على أن الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس = «اعمَلْ لدُنياك كأنَّك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنَّك تموت غدًا» = لا أصل له؛ فلا تجوز نسبتُه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]. (و)

(٢) [أي: يُنْسَى]. (و)

أكثرُ الشعراء هتافًا بشعره، أقلُّهم راويةً.

الحقيقة ثقيلة؛ فاستعيروا لحقائق العلم خفَّةَ البيان.

ما راع البِيضَ الرعابيب(١)، مثل رواعي المشيب.

تحمل المليحة ثكل الجمال، كما يحمل البخيل ثكل المال.

الشباب أعراس الجمال، والمشيب مآتمه.

عند الكمال، يبتدئ الجمال.

للجمال حين يزول، جلالةُ المِلك المعزول.

العلماء أشباهٌ، إلَّا مَن زاد في العِلم حرفًا.

(١) [**الرُّعْبُوبة من النساء**: البيضاء الحسناء الناعمة.

وهذا المعنى مغسول، وقد ذكرنا جملة من القول فيه، ما بين منظوم ومنثور، في «**ديوان الشيب**»، ومن ذلك قول الكُمَيْت:

«لهُنَّ وللمشيب ومَن عَلاهُ … مِنَ الأمثالِ قائِبةٌ وقُوبُ»

يعني: البيضةَ والفرخ]. (و)

السَّقْي بعد الغرس، والتربية قبل الدرس.

اجتنبِ التَّفريطَ والإفراط؛ تَستغنِ عن بُقْراط[١].

بُغِّضَ الكِبْرُ إلى النَّفْس الكبيرة، وحُبِّبَتِ الصَّغائرُ إلى النفْس الصغيرة.

يا أخا العزلة، أنت لو طِرْتَ عن الناس ما وقعْتَ إلَّا عليهم.

مَنِ استقام؛ استدام.

الكسل فالِجُ النفْس[٢].

الوقت مصارعٌ لا يزال بك حتى يصيِّرَك أجلادًا رثَّة، ولا يَدَعُك إلَّا وأنتَ جُثَّة.

في شهوة النَّفْس، شِقوةُ الجسد.

(١) [بُقْرَاط: إمام صناعة الطب. وقد قالوا: كان الطب معدومًا فأوجده بُقرَاط، وكان مَيْتًا فأحياه جالينوس، وكان متفرقًا فجمعه الرازي، وكان ناقصًا فأكمله ابن سينا]. (و)

(٢) [من بديع كلام الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكسل ابنُ عمِّ الحسرة. والبطالة أُمُّ الخسران. والحزم مَطِيَّة النُّجْح. والتفريط أخو الندم. والتواني أبو الفقر. وما يَحصُلُ بردُ العيش إلَّا بحَرِّ التعب. وما العِزُّ إلَّا تحت ثوب الكَدِّ. وعلى قدْر الاجتهاد تعلو الرُّتَب. ومن طلب المعالي، سهر الليالي. ولولا صبرُ المضمر على قلة العلف ما قيل سباق. ومَن تبصَّر تصبَّر]. (و)

العادة شهوة، لازمةٌ قاهرة.

تَهْرَم القلوب كما تَهْرَم الأبدان، إلَّا قلوب الشُّعراء والشُّجعان.

الشعر فكر وأسلوب، وخيال لَعُوب، ورُوح موهوب.

مَن ذهبَ يستقصي سرائر النُّفوسِ لم يرجع.

رُبَّ استحياء، تحته رياء.

من عرف نفسه بعد جهل وجدها؛ ومن جهِل نفسه بعد معرفةٍ فقدها.

مَن ظن أنه يُرضي أبدًا، يوشك أن لا يُرضي أحدًا.

من ذهب بنفسه فقدها، ومن ذهب بولده ضيَّعه.

السُّجون إذا امتلأت انفجرت.

للنَّفْسِ على كل ما عَمِلَتْ عِللٌ مِن هواها.



ربما مَنَعَتْك الحقوقُ الكلام، وألجمَتِ العهودُ فاك بلجام.

البُلْشُفِيَّة(١) قيصرية، لها جبروت الملك وسَرَفه، وليسَ لها جلالُه ولا شرفه.

الوقت عدو مجتهد، لا يدافعه إلا مجتهد.

الولد ثقل إذا فسد، ثُكْل إذا فُقِد.

لو لم يرقص الدينار في النار؛ ما رقص على الأظفار(٢).

قَيد الحديد عَسِر، وقيد الحرير لا ينكسر. لعن اللهُ القيدَ كلَّه.

لا يقع المَلَق إلا في نفسِ غرِّيرٍ أو مغرُور.

---

(١) [مرَّ ذكرها في موضع سبق]. (و)

(٢) [في شبيهٍ بهذا المعنى قال ابن الجوزي رحمة الله عليه في «المدهش»: كان بعضُ النَّجَّارينَ يبيع الخشب، وكان عنده قطعة آبْنُوس مُلْقاة تحت الخشب، فاشتُريتْ منه، فدخل دار الملك بعد مدة فإذا بها قد جُعلت سريرًا للملِك، فوقف متعجِّبًا، وقال: لقد كنتُ لا أعبأ بهذه، فكيف وصلتْ إلى هذا المقام؟! فهَتَف به لسان المُفهِم نائبًا عنها: كم صبَرْتُ على ضرب الفؤوس ونشرِ المناشير حتى بلغتُ إلى هذا المقام!.
وقال أيضًا: إذا صُبَّ في القنديل ماءٌ ثم صُبَّ عليه زيت صَعِدَ الزيت فوق الماء، فيقول الماء: أنا ربيت شجرتك، فأين الأدب؟! لِمَ ترتفع عليَّ؟ فيقول الزيت: أنت في رَضْراض الأنهار تجري على طريق السلامة، وأنا صبرتُ على العصر وطحن الرَّحا، وبالصبر يرتفع القدْر. فيقول الماء: إلَّا أنِّي أنا الأصل! فيقول الزيت: استر عيبَك! فإنك لو قارنْتَ المِصباح انطفأ!!!]. (و)

قادة الثورة مقودونَ بها، كالجلاميد[١] تقدَّمَتِ السَّيلَ تَحسَبُها تَقوده، وهي به مندفعة.

الثورَة جنون، طرَفاه عقل.

مَنِ استَقَلَّ بنفسه استوحشَ، ومن استقلَّ برأيه ضلَّ.

خُطة العاقل في رأسه، وخطة الجاهل في نفسه.

عادة السوء شَهْدٌ آخِرُه علقم، ووَرْدٌ في أصوله أرقم[٢].

الحظ طير يقع غيرَ مستأذِن، ويطير غيرَ مُؤْذِن.

مَن أحبَّ المالَ تَعِبَ بجمعه، ومن أحبه المالُ تعِب بتبديده.

أبى اللهُ أن يتساوى عبادُه إلَّا في النوم والموت.

(١) [**الجلاميد**: جمع جُلْمود، وهو الصخر]. (و)
(٢) [**الأرقم**: أخبث الحيَّات، ويطلق على الحية الذكر، وعلى ما فيه سواد وبياض منها]. (و)

الأمية شلل الأمم؛ الناس معها مُقْعَدون، وإنْ خُيِّل إليك أنهم يَعْدُون.

الرأي المسيَّر، إنْ قعدْتَ عنه تغيَّر.

العامَّةُ تدع صاحبها عند باب التاريخ.

الحق مَلِكٌ وإنْ مُلِك، عزيز وإن أُهين، ديَّان وإنْ دِين.

صبرالحازم تجلُّد، وصبر العاجز تبلُّد.

القدم إلى جاري المقدور، أسرعُ من الماء إلى الحَدُور[1].

الماضي يُسَلُّ عليك يومًا.

اخدَعْ مَن شئتَ إلا التاريخ.

ما مات الحق في قوم وفيهم رجلٌ حي.

أصدقاء السياسة، أعداءٌ عند الرياسة.

(١) [**الحَدُور**: المكان المنحدر]. (و)

حِيَلُ العقول تجري في وجوه المنفعة، وحيل النفوس في وجوه المضرَّة.

التاجر في حانوته بين يَدَيِ الرازق، فلا يُنازِع ولا ينازق[(١)].

مَن لم يتحرّك جَمَد، ومن جمد همد.

محاسنُ وجه الدار الخميلة، ومحاسن وجهِ البلدِ الفنونُ الجميلة.

خُلِقَتِ المرأةُ تَنبُل بالجمال، فإنْ فاتها التمسَتْ ما ينبُل به الرجال.

عجبْتُ من الصدر يسع الحادث الجليل، ويضيق بحديث الثقيل!

الحكمة مِصباح، يهديك حتى في وَضَح الصَّباح.

حُبِّبَتْ إلى الشيوخ أحاديثُ الشبابِ حنينَ الرجُل في علَّتِه، إلى أيام صحَّتِه.

خدع العقل الأمم، ويخدع الهوى العقل.

رُبَّ حُسْنِ سَمْت، أتى الرجالَ من الصمت.

(١) [النَّزَق: الخفة والطَّيْش، والعجلة في جهلٍ وحُمْق. ويقال: تنازَق الرجُلان: إذا تشاتما].(و)



حُبُّ القلوب يزول، ويبقى حُبُّ العقول.

مجد السياسة عُرضة للأحداث، وقد ينهدم على أهله في الأجداث[١].

إذا طال البنيانُ عن أُسِّه؛ انهدم من نفسه.

سلطانُ الفضيلة أعزُّ من سلطان العشق، سَلْ عُذرة[٢] عن العفاف كيف قتلها، وسَلِ الأديرةَ عمَّن دخلها.

مَن فقدَ الضمير، لم يَجِدْ مسَّ التحقير.

ارحمْ نَفْسَكَ من الحقد فإنه عَطَب، نارٌ وأنت الحطَب.

كل نارٍ طاهرةٌ مطهرة إلا نارَ الحقد.

كاد صفحُ الوالد يسبق ذنب الولَد.

لو حطَّمَتِ السِّنُّ المرأة، ما حطَّمت مرآتها.

---

(١) [**الجدَث**: القبر]. (و)

(٢) **بنو عذرة**: قبيلة اشتهر بها الهوى العذري.

إنما المرء مُروءتُه.

لا رعد مع صحو، ولا كوعيد العاجز لغو.

القُمَّل في لِبْدَة الأسد وهو مطلق، أعز من الأسد وهو وراءَ الحديد.

الحق المسلح أَسَدُ عرينه، والحق الأعزل أسدٌ زينه.

لا يُبحث عن القتلى والقتال دائر.

الحق كبير؛ فلا تصغروه بالصغائر.

مَن حمل نوائب الحق؛ حمل الأمانة كلَّها.

العالَم في كل زمان بلد، المال فيه أمير آخرَ الأبد.

الأعمى مَن يرى بغير عينه، والأصم من يسمع بغير أذنه.

التواضع المتكلّف زهر مصطنع: لا في العيون نَضِر، ولا في الأنوف عَطِر.

كل بنيانٍ يُهدم من رأسه، وبنيانُ الأوهام يُهدَم من أُسِّه.

يؤذي العاقل المفتون، كما يؤذي المجنون.

الحكمة أنْ تُحسن قولًا وفعلًا.

زواج العشق وِرْد ساعة، وزواج المال ورد صناعة، والبركة في زواج موَفَّقٍ يكون لعمارة البلد، وفي سبيل الولد.

ثلاثة مُسَخَّرُون لثلاثة آخرَ الأبد: الفقير للغنيّ، والضعيف للقوي، والبليد للذكيّ.

قَلَّما رفعَتْ رَجُلًا نفْسُه فوُضع، وقلما وضعَتْ رجلًا نفْسُه فرُفِع.

مَن ساء خُلُقُه؛ اجتمع عليه نكد الدنيا.

ضِيق الرزق، من ضيق الخُلُق.

نَسْجُ القلوبِ من شهوات.

دود الحرير أخرق؛ هلك تاركًا للناس خيرَ ما لَبِسوا فما تركوا له منه كفنًا، والنحل حكيمٌ؛ طَعِمَ من كلِّ الثمرات ثم أَطعم.

الشباب مُلاوة[1]، كلُّها حلاوة.

لا أعلم لك منصفًا إلا عملَك؛ إذا أحسنتَه جمَّلك، وإذا أتقنْتَه كمّلك.

إذا رأيت ساعيًا مجتهدًا تمْطُله الأسباب، وتُطاوِلُه الغايات؛ فاعلم أن حظَّه قاعد.

القوي مَن قَوِيَ على نفسه.

العقول الكبار دُرَرٌ كبار، لا تخلو واحدة من خدْش، يُظهره الخلُق أو يُخفيه.

جلائل الرغائب مخبوءَةٌ في كبار الهِمَم.

يتَّقي الناسُ بعضُهم بعضًا في الصغائر، ولا يتَّقون اللهَ في الكبائر.

مَن عَلِم مِن نفْسِه الكرم، ربأ بها عن مواقف اللُّؤم.

(١) [**الملاوة** ـ بتثليث الميم: حينٌ من الدهر وبُرْهَة]. (و)



كفى بزوال الألم لذة ، وكفى بفطام اللذة ألمًا.

مَن لم يكن في عنان[(١)] لذة أو تحت مِهْماز[(٢)] ألم، فليس على ميدان الحياة.

مَن عاش وعاشر؛ أمَلَّ محبًّا أو مَلَّ محبوبًا.

الجماعات مطايا أهل المطامع، تبلِّغهم إلى منازل الشهرة.

في الثورة لا يُقبلُ الرأيُ من أهل المشورة على أصالة رأْيهم وصِدْقِ نصيحتهم؛ ولكن على أسمائهم في الألسنة، وموقعِهم في القلوب.

الناس في الألم والموت سواءٌ؛ لم تسلم من الدمع جفون، ولم يمتنع على الصديد مدفون.

الفتيات نائماتٌ فإذا تزوَّجْنَ انتبهْنَ، والفتيان سُكارى فإذا تزوَّجوا صحَوْا.

شبَحُ الفقر غادٍ رائحٌ على اثنين: زوج المضيِّعة، وامرأة المقامر.

(١) [**العَنان** ـ بالفتح: السحاب، وما عَنَّ لك من السماء إذا رفعْتَ رأسك إليها وظهر. **والعِنان** ـ بالكسر: هو الذي يكون للدابة]. (و)

(٢) [**المِهْماز**: حديدة في مؤَخَّر خف الفارس أو السائس يهمز به جنب الدابة]. (و)

باني نفْسِه لا يُبالي ما هَدَم.

رُبَّ باكٍ كضاحك المُزْن؛ دمعٌ ولا حُزن.

مَن قَعدَ به المالُ؛ لم يَقُمْ به شيء.

ثورةُ النفوس تقطع الحبال، وثورة العقول تقلع الجبال.

المُقْعَد خيرٌ من القاعد، والكسيح خيرٌ من الكسلان.

إذا صدَقَتِ النية فكلُّ مذهبٍ جميل، وكل رأي أصيل.

عَجَزَ المغتابُ أن يكون سَبُعًا، فرضِيَ لنفسه أن يكون ضَبُعًا.

رأي الجماعاتِ بعضُه من بعض، وكلُّه من الفرد؛ كموج البحر بعضه من بعض، وكله من الريح.

مَن رفع شِرَاع العِلْمِ بلغَ ساحلَ الحياة وهو في أول اللُّجة.



الجميلُ إلى الجميل يميل، والحكمةُ تُحب الفنَّ الجميل.

مَثَلُ الشاعر لم يُرزَقِ الحكمةَ كالمغنِّي؛ صناعةٌ ولا صوت.

العاقلُ يكلِّمُ أناسًا ببعض عقله، وأناسًا بعقله كلِّه.

ذكروا للبخلِ مائةَ عِلَّة، لا أعرفُ منها غيرَ الجبلَّة.

الاعترافُ أَوْجَهُ الشُّفعاء.

اعترافُ الخاطئات استِبسال، وفرارٌ من الاسترسال، فانتشلوهن بعفوكم من الهُوَّة، وأحيطوا ضعفَهنَّ من حلمكم بقوَّة.

الحكمة في أفواه العلماء، وعلى شِفاه الدهماء، كالدُّرِّ يكون في قاع البحور، ويكون في نواعِم النحور، وكشُعاع الشمسِ يقعُ على الوَحَل كما يقعُ على الزَّهَر.

الموتُ أولُ المخاوف وآخرها.

من نقَضَ مَوْثِقه، نفضَ عنه الثقة.

إذا ذهبَتِ الأمم؛ بقيَتِ الرمم.

إذا زاد تواضع الكبراء؛ كان تلطُّفًا في الكِبْر.

لا يزال الشعر عاطلًا حتى تزيِّنَهُ الحكمة، ولا تزال الحكمة شاردةً حتى يُؤويها بيتٌ من الشعر.

الوقف من حرص النفوس، ويراد به المالُ لا البنون.

بين الحلم والخَوَر جسرٌ أدق من الصراط[١].

(١) [من بابة هذا ما قال أبو عثمانَ الجاحظُ في «البيان والتبيُّن» (١/ ١١٣-١١٤/ ط: القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١/ ٢٠٢-٢٠٣ ط: الخانجي): «... لكنَّا نقول: إن الحياء اسمٌ لمقدار من المقادير، ما زاد على ذلك المقدار فسَمِّه ما أحببتَ. وكذلك الجُود اسمٌ لمقدار من المقادير، فالسَّرَفُ اسم لِما فضل عن ذلك المقدار. وللحزم مقدار، فالجبن اسم لِما فضل عن ذلك المقدار. وللاقتصاد مقدار، فالبخل اسم لِما خرج عن ذلك المقدار. وللشجاعة مقدار، فالتهور اسم لِما جاوز ذلك المقدار».
وقال ابن قَيِّم الجَوزية في «مدارج السالكين»: «كل خُلُقٍ محمودٍ مكتنَفٌ بخُلُقَينِ ذميمين، وهو وسَط بينهما، وطرَفاه خُلُقَان ذميمان؛ كالجود الذي يَكتنِفُه خُلُقَا البخل والتبذير. والتواضع الذي يكتنفه خُلُقَا الذل والمهانة، والكبر والعلو. فإن النفْس متى انحرفت عن التوسُّط انحرفت إلى أحد الخُلُقَينِ الذميمين ولا بدَّ: فإذا انحرفت عن خُلُق التواضع؛ انحرفت إما: إلى كِبر وعلوٍّ، وإما إلى ذُلٍّ ومهانة وحقارة.
وإذا انحرفت عن خلق الحياء؛ انحرفت إما: إلى قِحَة وجرأة، وإما إلى عجز وخَوَر ومَهانةٍ بحيث يُطمِع في نفْسِه عدوَّه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس.
وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود؛ انحرفت إما: إلى جزع وهلَعٍ وجشع وتسخُّط، وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجُّرِ طبع، كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحدٍ ... فنحن أَغلَظُ أكبادًا مِنَ الإبلِ! =



ثلاثة لثلاثة بالمرصادِ: الموت للحياة، والشقاء للذكاء، والحسد للفضل.

خَفِ اليائسَ؛ فإنه لا يخاف.

كِبْرُ الصغير قبيح كتواضعه؛ كلاهما في غير موضعه.

= وإذا انحرفت عن خلق الحلم؛ انحرفت إما: إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة. ففرقٌ بيْن مَن حِلمُه حِلمُ ذُلٍّ ومهانة وحقارة وعجز، وبيْن مَن حلمه حلمُ اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كلُّ حِلمٍ أتَى بغيرِ اقتدارٍ ... حُجَّةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

وإذا انحرفت عن خُلُق الأناة والرفق؛ انحرفت إما: إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خُلُق العِزَّة التي وهبها الله للمؤمنين؛ انحرفت إما: إلى كِبْر، وإما إلى ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة؛ انحرفت إما: إلى تهوُّر وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخُّر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة؛ انحرفت إما: إلى حسد، وإما إلى مهانة وعجز وذل ورِضًا بالدُّون.

وإذا انحرفت عن القناعة؛ انحرفت إما: إلى حرص وكلَبٍ، وإما إلى خِسَّة ومَهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق الرحمة؛ انحرفت إما: إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجُبنِ نفْسٍ، كمَن لا يُقدِمُ على ذبح شاة ولا إقامة حد وتأديبِ ولدٍ، ويزعم أن الرحمة تَحمِله على ذلك!!

وكذلك طلاقة الوجه والبِشرُ المحمود؛ فإنه وسَطٌ بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخدِّ وطَيِّ البِشر عن البَشَر، وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يُذهب الهيبة ويزيل الوقار ويُطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبِغضةَ والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسطِ مَهيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانبه، حبيبٌ لقاؤُه. وفي صفة نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن رآه بديهةً هابه، ومَن خالَطه عِشرةً أَحَبَّه**»]. (و)

حظُّ النفسِ من الحرص حظ المقاتل من السلاح؛ إذا زاد عن حاجته تخبَّل وناءَ بما حمَل؛ وإذا قصر عنها تقهقر وانخذل.

اثنان في النار دنيا وأُخْرَى: الحاقد، والحاسد.

الدِّين السمح في الرجل السمح، والجنس الكريم في الرجل الكريم، فأَحْبِبْ من ليس من دينك تحببْ دينك إليه[١]، وأَكْرِمْ مَن ليس من جنسك يَكرمْ جنسُك عليه.

آفة النُّصح أن يكون جدالًا، وأذاه أن يكون جهارًا.

في الدنيا مزيدٌ من العقل للعاقل، ومتمادَى في الجهل للجاهل.

اثنان معاديهما في خُسْرٍ: القوي المغلَّبُ، والرجل المحبَّب.

شرف الكبراء كالوَرد في إبَّان غضاضته، إذا نزعت منه ورقة انحل وانتثر، وانتقض جميعُه على الأثر.

تَجمع اللغاتِ على اختلافها الحكمةُ، كما تجمع شتَّى المعازفِ النغمةُ.

---

(١) [قد يستقيم بعض القول إذا أريد بالحب البر والإقساط، لا المودة]. (و)

لا يكن تلطُّفُك مُذالًا[١]، ولا تحبُّبُكَ ابتذالًا، فإن الطُّفَيْلِيِّينَ أعذبُ الناس كلامًا، وأكثرُهم ابتسامًا.

أساطين البيان أربعة: شاعرٌ سارَ بَيْتُه، ومصوِّرٌ نطق زَيْتُه، وموسيقيٌّ بكى وَتَرُه، ومَثَّال[٢] ضَحِك حَجَرُه.

مِن الأمهات تُبْنَى الأمم.

الأمية في العقلاء شكائم، تتأسَّى بها البهائم.

الشباب من الموت خطوة أو ما فوقها، والمشيب من الموت خطوة أو ما دونها.

الطير لا تقرُبُ أفقًا فسد فضاؤُه، والحرية تهرُب من بلد اختل قضاؤُه.

إذا ضغط على قاضي الأرض في بلد ضغط عليه قاضي السماء.

شُورَى من الحَجَّاج وزياد، خير من الفَرْد ولو كان عُمر.

---

(١) [مُذالًا: زائدًا عن الحد]. (و)

(٢) [المَثَّال: صانع التماثيل ... وأنت قسيم في المعرفة بأن الإسلام نهى عن تصوير كل ذي رُوح وأغلظ. ولا يذهبن عنك حكم الشرع في الموسيقى]. (و)

خُذْ مِن مال الناس ما شِئْتَ؛ فإنَّ وارِثَكَ رادُّه إليهم.

ليس العِلْم لك بِسِفْر، حتى يكون لك فيه سطر؛ وليس الأدب لك كتابًا، حتى تَزيدَ فيه بابًا.

الإنسان لولا العقلُ عَجْماء، ولولا القلبُ صخرةٌ صمَّاء.

مَن وَضَعَ نفْسَه؛ قَصَرَ عن فضيلة التواضع.

المرء كَلِفٌ بما أَلِف.

المغرورُ مَن يَظُنُّ الناسَ لا يستغنون عنه، والمخدوعُ مَن يظنُّ أحدًا من الناس لا يستغني الناسُ عنه.

مَن أخلَّ بنفْسه في السِّر؛ أخلَّتْ به في العلانية.

إذا رأيتَ المرأةَ لا تَدَعُ صَلاتها فلا تَثِقْ بها كلَّ الثقة، وإذا رأيتها لا تضعُ مرآتها فلا تتَّهِمْها كلَّ الاتِّهام.

العاقل لا يَثِقُ حتى يُجرِّب، ولا يَتَّهمُ حتى يَتبيَّن.

ثقةُ العاطفة شهر، وثقة العقل دهر.

الثقة وَثاقُ الأحرار.

الثقةُ مراتبُ، فلا تَرفع لعُليا مراتبها إلا الشريكَ في المُرِّ، المُعينَ على الضُّرِّ، الأمينَ على السِّرِّ.

مَن أَحسَنَ الثقة بنفْسه، فليَثِقْ بعدها بمَن شاء.

الوقتُ آلةُ الرزق إذا استُعمل، وآفة الرزق إذا أُهمل.

يا عدوَّ الزواج: لو كنتَ العَزَبَ القُدْسِيَّ عيسى ابنَ مريمَ ما استطعتَ أن تقطعَ له نَظْمًا، أو تُعطِّلَ له سُنَّة.

ليس للدنيا بِبَعْلٍ مَن خطبها بلا عمل، وصَحِبها بلا أمل.

الحقُّ نبيٌّ قليل التَّبع، والباطلُ مُشَعْوِذٌ كثيرُ الشِّيَع.

جِئْنِي بالنَّمِر العاقل، أَجِئْكَ بالمستبدِّ العادل.

لو طُلِبَ إلى الناس أن يحذفوا اللَّغو وفضولَ القول من كلامهم؛ لكاد السكوتُ في مجالسهم يحلُّ محلَّ الكلام. ولو طُلِبَ إليهم أن يُنقُّوا مكاتبهم مِن تافه الكتب وعقيمِها، وألَّا يدخروا فيها إلَّا القيِّمَ العبقريَّ من الأسفار؛ لَمَا بَقِيَ لهم مِن كل ألْفِ رَفٍّ إلَّا رَفٌّ.





فهرس





من إصداراتنا

